الفصل التاسع

إعادة التأسيس

بعد انقضاء أشهر من السنة الجديدة عاد الجد علي بن حمد، لملاحظة تزايد وتيرة الرسائل للأمير تركي بن عبدالله، في مكمنه بطويق مما يثير القلق حول إمكانية التعرف على مقره في "عليه" شمال شرق بلدة الحريق، لذا قرر هذه المرة أن يتوجه بنفسه للسلام على الأمير وبحث الأمر معه مواجهة، فتبادلا الحديث حول الرسائل التي لم تقتصر على الأنصار في ضرما والخرج، بل بلغت منفوحة وسدير حيث أعداء يتربصون به. تبسم الأمير بانشراح وبدت على محياه علامات التفهم والسرور والمحبة، مما يختلف مع ما ظهر عليه في الشهور الماضية، من تقطيب الوجه وعلامات الغضب والقسوة والبطش، مما أثلج صدر الجد واستمر في تساءله عن إمكانية، التحفظ في تبادل المراسلات لتلافي خطر الانكشاف للعدو. فقال له الأمير "لقد عزمنا على مغادرة عليه" وأريد من الحريق عشرين رجلا، لمرافقتي للحاير حيث سينضم إلينا عدد من سبعان الدلم، ونتوجه مع البقية من العجمان والسبعان لاستعادة حكم البلاد من قبل أبنائها، وتخليص المسلمين من سيطرة الغرباء. قال له الجد أن الأجدى التوجه إلى نساح، حيث الدرب أقصر وآمن للوصول إلى ضرما، بدلا من الذهاب للحاير القريبة من عيون الترك وأعوانهم، المنبثين في الخرج والرياض "يتربصون بكم الدوائر" فرد عليه الأمير أن الخوالد قد تعاونوا مع الترك، ووطدوا نفوذهم في الأحساء وامتد إلى نعجان والدلم والوشم، وغدت ضرما في متناول أيديهم فلقد نصحني جماعتنا هناك بعدم التوجه لها. لم يشاء الجد أن يثقل عليه بالتساؤل عن وجهته، بل بادر بفعل الصواب وهو تأكيد الاستعداد للمضي معه حتى "برك الغماد" لو شاء ومتى شاء وعلى بركة الله، فأفاده أنه يريدهم هناك قبل نهاية شهر شعبان بخمسة أيام، فهب الجد قائماً ووعده أن يكون في صحبة الرجال في الحاير، وسيجد خبر عنهم لدى الشيخ فراج.

عاد الجد مع رفاقه للحريق يتأهبون في صمت للذهاب للحاير نهاية الشهر التالي، وكانوا يخشون تسرب نبأهم لأشرار البلدة، الذين لا يخرجون عن إمرة العايذية في الخرج، ويتحسسون أي نباء عن مكان تركي بن عبدالله، حتى يفوزوا بجوائز الترك الثمينة. وصل العشرون مقاتل للحاير يخفون هويتهم وسلاحهم، بقيادة أحد كبار أسرة آل خثلان واتجهوا لمزرعة ومنزل لأحدهم هناك، وارسلوا خادم بإشعار عن مكمنهم، وانقضى الشهر ولم يردهم شيء فساورتهم الظنون والمخاوف، وياشروا الصيام يتلمسون أنباء عن الأمير ورفاقه لبضعة أيام. ثم وصلتهم دعوة للتوجه نحو الملتقى فوجدوا العفيصان ومعه مسلحون من شامر وآخرون من المحمدي وثلاثة من منفوحة

وعددهم ينوف على الخمسين، ولما لم يبادرهم بالحديث عن الأمير أو خطة السير، سأله الجد عن حاله بعد مقتل جماعته على يد الترك وأعوانهم من العايذية (أصهاره) فحمد الله على ما قدر ولم يسترسل في الحديث، مما أكد شك الجد بأن في المجلس من لا يلزم أن يعلم عن الأمر شيئا، ولاحقا تساءل البعض عن وجهتهم فأخذ الكل يخمن ما يظنه صوابا، وأما الجد فقال أنهم قد يذهبوا نحو منفوحة، فرغم وجود أعداء كثر هناك إلا أنه لاحظ ورود مكاتبات من بعض أهلها للأمير. في اليوم التالي غادروا ليلا صاعدين وادي حنيفة، وبعد ساعات من السير في الظلام الدامس وصلوا عند بيوت شعر في مكان منزوي، حيث وجدوا الأمير ورفاقه الذي اشعرهم بوجوب الكتمان والتحوط، وقسم الجميع إلى ثلاث فرق أولاهما من عشرة فقط ترافقه، والثانية بقيادة العفيصان تتوجه أمامهم نحو جنوب الحبونية، والثالثة فيها الجد ويقودها رجل من العجمان أمرهم بالتوجه إلى غذوانة، التي لم يعرفوها لكن الجد يعرفها من وصف أبيه لها لما أسروهم المكرمية، لذا أمروا بالتخفي جنوب غربها حتى يصلهم المنادي. بعد يومين وقبل الفجر بثلاث ساعات، وصل لقائدهم توجيه للذهاب شمالا صوب الدرعية، اندهش الجد من ذلك لأن قصورها خربة وبها رتبة من عساكر الترك، فقال له أحد الحراقى "لا يهمونك العسكران نذبحهم!" ولما وصلوا قرب عرقة وجدوا ثلاثة رجال من مرافقي الأمير أحدهم من آل شامر، اقتادهم نحو أحد المنازل ورتب لهم الجلوس فيه ودبر مربط لركائبهم، ثم حضر العفيصان وفرقته فاكتظ المكان، ولا أحد يعلم ما إذا يمكنهم التأهب للصيام، وأثناء المداولة دخل عليهم الأمير في "وجل وتحفز" ليس معه إلا ثلاثة رجال، أحدهم من ذرية مشاري بن سعود (المقرن) واثنان من المماليك طوال القامة مفتولي العضلات. قام رجل يتطلع من نافذة صغيرة مرتفعة، ثم قال إن المؤذن قد دخل المسجد فوجه الأمير ابن عفيصان للذهاب إلى ناحية مظلمة منزوية شمال المحراب، وألا يدخل أحد منهم المسجد إلا عند انقضاء الصلاة، وأمر البقية بالانتظار في المسكن ولا يخرجوا إلا إذا سمعوا طلقات الرصاص، وتوجه هو وصحبه الثلاثة ودخلوا المسجد، كانت الرؤية من النوافذ غير واضحة لذلك اتجه الجد للسطح، وأخذ يتطلع من فتحات صغيرة في حائط الحجى، وأثناء ذلك راودته نفسه أن يأكل بعض زاده سحوراً، ولو حدث قتال فيمكنه الفطر أو يتم صيامه إلى الليل.

بعد الأذان توافد عدد من سكان البلدة نحو ذلك المسجد المتهالك، ولم يلاحظ الجد أن أحد منهم تبدو عليه مظاهر الثراء أو السلطة، بل جميعهم بسطاء يعملون في تلك القرية التي تعتبر ضاحية جنوبية للدرعية، تستفيد من جوارها وموقعها على الضفة الغربية لوادي حنيفة، وهي حاليا أحد الأحياء في مدينة الرياض الكبرى، تقبع في مكان قرب الحي الدبلوماسي وغير بعيد عن مساكن ذوي الدخل المحدود! ثم لاحظ قدوم شخص ذو حيثية يرافقه رجلان مسلحين، وبمجرد دخولهم المسجد سمع على بعد صوت إقامة فريضة الفجر، فانزوى في ركن السطح يؤدي صلاته منفرداً، ثم سمع ضجيج ما بدا كأنه شجار داخل المسجد، أعقبه صراخ ونداء خافت ولاحظ أن بعض رجال العفيصان

قد اندفعوا من مخبأهم نحو الباب الشرقي، وخمن أن الباب الشمالي لم يسعهم، ثم شاهد بعض المصلين يتدافعون في هلع لمغادرة المسجد من الباب الجنوبي، وأرخي سمعه لعله يدرك إشارة هجومهم وهي صوت إطلاق النار، فلم يبلغه شيء من ذلك لكنه بقي في قلق، فلم يدر بخلده أن يشاهد المسلمين يتحاربون في بيت الله، وكان من قبل يقشعر من ذكر البعض تفاصيل ما قام به الباهلي ضد عثمان بن معمر في مسجد العيينة قبل نحو ثمانين سنة، وأخذ يردد تسابيح الصبح وعينه على أبواب المسجد وقلبه يكاد ينفطر من الوسواس الذي يدور في رأسه. بعد ما يقارب الساعة وبدء انبلاج الصبح، اتضحت له الرؤية أفضل مما كان على ضوء المصابيح الزيتية الخافتة، وتمكن من مشاهدة رجال تبدو عليهم مظاهر الثراء يدخلون ثم يغادرون سريعاً، ثم فجعه منظر أحد مرافقي الأمير تركي يخرج وثيابه ملطخة، ففهم أن دماء قد سفكت هناك فزاده ذلك غماً، وأمسك برأسه بين ركبتيه لوقت لم يدركه، حتى جاءه الخادم قائلا إن الأمير يأذن للجميع بالخلود للراحة بعد عناء تلك الليلة، وأنه قد أعد له مرقد وثير في الأسفل. لم يتنبه إلا قبل العصر فصلاها مع الظهر قصراً وجمعا، وحمد الله أن بات متسحراً على نية الصوم، وقبل المغرب دعي الجميع للإفطار مع الأمير، حيث وجد حشد من القوم يبايعون تركي بن عبدالله، بعبارات غامضة لا يعلم اذا كانت بيعة رئاسة أو إمارة أو إمامة للمسلمين، وكان منشغلا مع الزوار يحيي حتى من لا يبدو أنه يعرفه، وأما الجد فلم تسنح له فرصة للسلام أو التهنئة أو المحادثة، فعاد إلى مرقده، ولكن أنى يأتيه الكرى في تلك الحالة؟ وتبادل الحديث مع أحد الصحب حول حالتهم تلك وماهم فيه من شظف، والأولى أن يكونوا في هذ الليالي المفترجة في ديارهم مع أهلهم، وهم لا يعلمون ما في جعبة الأمير من تدبير ولم تسنح أي فرصة لمحادثته، فرد عليه بأن الصبر مفتاح الفرج ووعد بأن يتحدث مع أحد أعوان الأمير ليستطلع الحال.

زاد شغف الجد بالرحيل من عرقة، لما جاء أحد القرابة من الحائر بأن جماعتهم في الصمان يستغيثون بهم، فقد هجم عليهم جيش من العجمان ليأخذوا ديارهم، ويحرموهم مصادر المياه والمفالي التي يرعون فيها أنعامهم. وأنهم يعدون العدة لاستعادة ما سلب منهم بعد العيد مباشرة، ويرغبون أن يبادر إخوتهم السبعان بالتوجه لهم بالرجال والسلاح قبل انقضاء هدنة رمضان. ولما استفسر عن الأمر قيل له إن الخوالد بعد سقوط الدرعية وشنق إمامها، قد عادوا إلى سابق إمارتهم بتدبير مع الترك الذين سرهم ذلك، لكنهم يخشون استفحال أمر الخوالد ويصبحوا "غول ضخم" يقض مضاجعهم، لذا كانوا يرغبون تحجيم قدرهم بما لا يتجاوز منطقة الأحساء والقطيف فقط، وأن لا يصلوا إلى عارض اليمامة قط، لذا أوعزوا للعجمان عبر معاونيهم في ساحل الخليج، لكي يتمددوا نحو الشمال الغربي قريباً من المطران حلفاء الترك، كما يتمددوا جنوباً نحو الدواسر (قحاطين أيضاً) فيقطعوا الطريق على مطامح الخوالد للسيطرة على نجد. وأدى ذلك أن يحتلوا حفر العتش (أو العتك) في شمال الصمان الذي تتوفر فيه حفائر (آبار) للمياه العذبة، وهو من أراضي "رماح سبيع" منذ قديم الزمان، لذا استنجدوا

بجماعتهم من سبعان اليمامة، الذين بدورهم كانوا على علاقة وطيدة وتبادل منافع مع بني خالد خلال القرون الأربعة الماضية. كما أن التوغل شمالاً أدى إلى المساس بأراضي عنزة جنوب العراق، الذين بدورهم لجأوا لبني خالد لطلب العون، فتجمعت حشود ضخمة من القبائل الست، والترك يكيدون في الخفاء لكل العرب ويسرهم مشاهدة اقتتالهم. تساءل الجد عن أعداد الترك وأماكنهم في الصمان، فقيل له أنهم مجرد محرضين ومتفرجين على خيبة العرب، بخاصة أن قائد الجماعة الأولى (عريعر بني خالد) حليفهم الشرقي، وقائد المجموعة الثانية (دويش مطير) حليفهم شمال غرب من الزلفي حتى الحجاز، لذلك فهم يريدون "تدمير خصومهم مع عدم السماح بتعاظم حلفائهم" ليحافظوا على مصالحهم! وهذه سياسة الغطرسة لدى آل ارطغرل التركمان، منذ نزحوا نحو بلاد الأناضول ثم استحلوا عاصمة الروم القسطنطينية، مما جعلهم يميلون نحو أساليب خبيثة في التعامل مع الأغيار. قال الجد أنه لا يبالي بتلك الأمور الجانبية، كما أنه سلاحه يجبن عن التعدي على أهل التوحيد، وما دام ليس هناك عساكر للترك فهو غير راغب المشاركة في هوشات العرب ونزاعهم على مصالح دنيوية رخيصة. عارضه قريبه بالقول إن العدوان على الديار ليس رخيصاً ولابد من مكافحته، كما أن الترك الذين تجيز قتالهم ليسوا كفار بل من أهل القبلة، فرد الجد غاضباً بأن من يعمل السيئات ويشرب المسكر ويمارس الفواحش واللواط، ولا يصوم ولا يصلي ولا ينهى عن المنكر ليس من أهل ملتنا.

جاءه أحد الرفاق ومعه رجل من ضرما، دعاه لحضور الإفطار غداً عند آل فقيه أصهار الأمير تركي، وهناك وجد سماط ممدود عليه طعام طيب، ورجال أطيب ينتظرون أذان المغرب، يحتفون بالحضور ويجلسون كل في مكان لائق، وقعد الجد بجوار أحد سبعان ضرما يعرفه منذ أيام الدرعية. الترتيب بسيط والجمع نحو عشرين لم يكد المكان يتسع للكل، قال أحد الحضور إن هؤلاء من سبعان الحريق مشيراً نحو ثلاثة من الخثالين، وهم قد تضجروا من عرقة لما رأوا سفك الدم في بيت الله، ولم يباشروا قتال الغزاة حتى الآن، لذا يودون العودة لبلدتهم وأهلهم قبل العيد. لم يمهلوهم للحديث فسارع أحد شيوخ عتاقر ضرما بالكلام، فرحب بهم مشيداً بأنهم قاموا بإخفاء الأمير تركي في جبالهم سنتين، ولو كان في بلدة أخرى لشاع نبأه في أيام، فقال له أحد كبار آل خثلان أطال الله بقائك والأمير ومن يسمع، ولقد سرنا وجوده لدينا لشهور قليلة، وتمر السنون بون أن ندري، وودنا لو نفديه بأرواحنا وأملاكنا فهو الأمل بعد الله، في إجلاء الترك البغاة عن ديارنا التي نشروا فيها الفساد. ثم أردف شخص آخر قائلا إن ما جرى في المسجد، هو أن رئيس عرقة جاء ومعه اثنان من الأخوياء، ولما حاولنا القبض عليه بادر أحدهم بسحب فرده، وقاومناه فأصيب في ذراعه من إحدى السكاكين، ثم حجزنا الثلاثة مربوطين في المحبس ولم يقتل أحد، أمر آخر هو أن الأمير راسل الكثير من أهالي سدير والمحمل، ووعدوه أن يسيروا إليه في حشد كبير ثاني يوم بعد العيد، ومن هنا سنتجه جميعا نحو الرياض ومنفوحة، لإخراج بهلول وعساكره منهما ثم طردهم

من نجد كلها وإعادة حكم الشرع بالكتاب والسنة، والأمر الثالث أنكم على رغبتكم فاذا أردتم أهلكم ففي حفظ الله، وإن أردتم إتمام الجهاد ضد الروم فهذا ما عهدناه منكم وخير الأعمال خواتيمها.

ضحى يوم العيد توجه مع بعض الصحب لجولة شمال عرقة، حيث لاحظوا وصول ركائبهم إلى مزارع المغترة والعويسية خلال وقت قصير، وهي الحد الجنوبي للدرعية وينحرف الوادي بعدها غربا حتى ظهرت بقايا الطريف، فساءهم مشهد الخراب بعد العمار والبذخ الذي كانت عليه، وتذكر أحدهم قوله تعالى "كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين" وهي منشآت لم يرثها أحد، بل جاءها قوم آخرون أجانب فسقة دمروها وخربوها، لحقد في نفوسهم المريضة المبغضة لأهل التوحيد. لم يدخلوا البلدة، ولكنهم لاحظوا على بعد وجود أقوام يسكنون تلك البيوت، وبعض المباني القوية التي صمدت أمام مدفعية الترك، وأكثر المزارع تالفة والنخيل محترقة والأسوار مهدمة. لم يتوغلوا شمالا في بقية نواحي الدرعية، وعادوا أدراجهم منحدرين أسفل وادي حنيفة، حيث تبينت للجد ملامح عرقة بشكل أوضح من على بعد، وقالوا له إنها بلدة صغيرة لا يتجاوز سكانها الألف، ومعظمهم من عمال وخدم آل مقرن، الذين ولد آبائهم وعاشوا هناك خلال القرون الثلاثة الماضية، وفي الآونة الأخيرة سكنها أيضا نفر من بني حنيفة وتميم "الواسعة" بعد أن ازدحمت الدرعية زمن أبو الشوارب، كما يقطن فيها نفر من عنزة وسبيع وقحطان الواسعة، وتتميز البلدة بتربتها ومياهها الطيبة لذا تكثر فيها الزراعات، التي لم تطلها أيدي التخريب التركية بعد.

طال انتظار وصول قوات سدير، وبعد عشرة أيام جاء راصد ينبئ بمشاهدة نحو مائتي رجل مسلح، وصلوا أعلى الوادي في الجبيلة من الشمال، منهم نحو أربعين فارس ومثلهم على الهجن، والبقية على بغال وحمير أو رجلية، وهم يمشون الهوينا وقد اصطدموا مع أناس بينهم عداوة سابقة، وحاولوا أخذ بعض حلالهم كقود فتعاركوا معهم. ولما وصلوا عرقة لاحظ الجد أن جل الحاضرين من دواسر جلاجل، وهناك عدد من السهول والسبعان وتميم وقحطان، من قرى عديدة في سدير والمحمل مثل الروضة والعودة والحوطة وعشيرة والتويم والعطار وثادق ومن ديار أخرى، ومن كل ديرة نفر يسير حتى أن بعضهم لا يتجاوز خمسة أو ستة من القرية الواحدة، كما يصحبهم رهط من المحبين للبيت السعودي النبيل، لكن البعض يبدو عليه الطمع الدنيوي. أعد الأمير وليمة ترحيب لهم، ثم رتب جهازه للتوجه إلى منفوحة الصغيرة بدلا من الرياض، التي يوجد فيها حامية تركية تقارب الألف بقيادة بهلول، ذو المهارة القتالية المعتبرة. اندفع الجميع في بطن الوادي منحدرين جنوباً، ولما وصلوا قرب مزرعة رجل يقال له ابن عتيق، صعدوا يساراً متجهين شرقاً نحو الحبونية ثم منفوحة، حيث سبقهم خدم الأمير وأقاموا مخيم متواضع غرب البلدة الصغيرة، ولم يكادوا يحطوا

الرحال حوله إلا وارتفع صخب وهرج، حيث اختلف العفيصان مع رئيس القادمين من منيخ وجلاجل، وهو رجل ذو مكانة مرموقة بين قومه من الدواسر، الذين آثروا المناخ شمالي البلدة بينما اقترح رجل الدراية والممارسة (العفيصان) أن يستقروا جنوبها، بعيداً عن خط التواصل مع الرياض، التي يحكمها "ظاهريا" أصهاره القدامى، من بقايا آل عايذ رؤساء السيح منذ قرون، كما يوجد بها بهلول ضابط عساكر الترك. ولما بلغ الأمير ذلك أوصى أن ينزل كل منهم حيث يشاء، ولم يستحسن الجد علي ذلك لأن فيه تغليب الشهوة على الحكمة، لذا تداول مع أفراد خبرته (مجموعته) وقرروا الإقامة جنوب مناخ الأمير (غرب البلدة) في مكان حصين. في الصباح الباكر شن العفيصان هجوم على مشارف منفوحة الجنوبية، وتقدموا نحو الحائط حيث المقاومة ضعيفة، وكذلك فعل سبعان الفُرع والحاير والأفلاج بتوجيه من الأمير، أما أهل سدير فقد تضعضع هجومهم من جهة الشمال، حيث لاقوا مقاومة شديدة من رجال المزروع الذين تعاونهم ثلة من الروم، الذين معهم بنادق حديثة ذات مدى رماية بعيد ودقة في الإصابة. لما سكن الليل اجتمعوا عند الأمير، وقال العفيصان أن لديه خبر من الرياض أن بهلول قرر دعم منفوحة، وأنه سيرسل قبل السحر كتيبة معها مدفع ميدان، تتسلل من الرياض نحو شرق البلدة، ومعهم مزيد من السلاح الحديث الصنع والذخيرة، وأنه بحاجة إلى مائة من الفرسان لينقضوا عليهم ويسلبوا ما معهم، ويمنعوا دخولهم البلدة لمساعدة المزارع على الصمود لهجماتنا، ولما ذكر طلب المتطوعين من سدير رفضوا حيث أنهكهم القتال طيلة ذلك اليوم الشديد الحرارة (تموز الجوزاء) كما يعانون نقص الماء والزاد، بينما وافق أكثر السبعان على المشاركة بعد قسط من الراحة حتى بعد منتصف الليل. توجه الجميع بقيادة العفيصان ومعهم رهط من تميم، ونحو عشرين من شجعان سدير بعضهم من الزبير، وكان القمر بازغاً في تلك الليلة الحارة لكن النسائم النجدية لطفتها، وكمنوا في منخفض مع مطاياهم يتربصون للروم، وأرسلوا بعض السبور في الجوار لتلمس أي أثر للعدو فلم يجدوا شيء. بعد طلوع الشمس سمعوا دوي قذيفة مدفع تجاه الغرب، ثم جاءهم نباء محاولة البعض دخول منفوحة من الشمال، فتصدت لهم الحامية التركية بنيران كثيفة، لذا أمر العفيصان رجاله بسرعة التوجه نحو مقر القيادة، بالدوران نحو جنوب البلدة لتفادي الوقوع في نطاق الرماية. وهناك علم الجد أن بهلول الداهية الماكر قد سرب معلومات خاطئة، ثم أرسل المدد لمنفوحة بعد المغرب ووصلوها خلال أقل من أربع ساعات، مسرعين وهم يسحبون مدفع صغير يقذف قطع صغيرة من المعدن والحصى، على المهاجمين من الراكبين أو المشاة فقتل كثير منهم. وفي اليوم التالي كان حشد من رجال الأمير يتباحثون الوضع تجاه العدو، ثم تطور الحديث إلى انتقاد للتصرفات ثم زاد إلى حد تبادل الاتهام، وبلغ ذروته بملاسنة قبيحة بين بعض القادمين من سدير مع أهل اليمامة. واسّتُهِلْ ذلك بتأفف أحد السدارى من ترتيبات كبير قادة الأمير، ورأى أن الواجب التوجه نحو البلدات التي لا يوجد فيها عسكر، وأهلها منقسمون بين موالاة الترك أو ابن سعود، ويقوم بقمع المناوئين ويتقوى بالمخلصين، حتى يطهر البلدة المجاورة له وهكذا خطوة بخطوة، حتى تنضوي تحت

لوائه كافة مناطق سدير والمحمل والخرج، وعندما يصبح لديه آلاف المؤيدين يتوجه للمدن التي فيها عساكر الترك ويطردهم من الديار. وقال آخر منهم إن التعجل في محاربة الترك قبل تجميع جيش كاف، هو عمل متهور لا يقود إلا للفشل، فرد عليه العفيصان أن البلاء منكم، فلا تريدون اتباع أوامر القيادة بل تتصرفون على هواكم، وغايتكم أن يساعدكم الأمير في دحر بني عمكم عن امارة جلاجل، ثم بعد ذلك تعملون ما يحلو لكم، ولقد وعدتم الأمير أن يأتي إليه حشد ضخم منكم، ثم تبين أن ليس معكم إلا شرذمة من "الواوية" وخيل هزيلة وسلاح بالي. عندها اشتد الحنق بالدواسر وخاطب كبيرهم الأمير وهو يهم بالقيام بأنه عائد إلى أهله، فقال أحد الجالسين انتظر حتى تسمع ما لدينا، لكن أحد رفاقه جذبه من يده قائلا دعك منهم فهم "ض؟؟؟ة في يد الصديق" فنهض أحد قحاطين اليمامة ويده تقترب من خنجره، قائلا "بل أنتم الز؟؟؟ة" فأشار الأمير الى تابعيه أن يخرجوه من المكان، لكن أهل جلاجل رفضوا الجلوس أو الاستماع، وتوجهوا لضف أغراضهم ومتاعهم عائدين من حيث جاءوا. عند المساء اجتمع الأمير مع من تبقى من رجاله، وكل أدلى بدلوه عما يمكن عمله في خضم هذه الورطة، وجاء كل منهم بما لديه والأمير يصغي باهتمام، لكن الآراء تواترت على صحة ما قاله العفيصان، بأنه اذا طلع الصبح وشاهد جواسيس العايذي رحيل نصف مقاتلينا، فسوف يرسلون له مئات من فرسان الروم وأعوانهم من العرب، ليقودونا جميعاً للمشنقة لزم يلزم سرعة الرحيل قبل ذلك، أما الجد فقد اقترح التوجه جنوباً نحو الحائر ثم القضاء على الخوالد في نعجان، وانتظار المدد من الفُرع وبرك والأفلاج، ثم الهجوم على ابن زامل الذي يحكم مناطق واسعة في جنوب اليمامة، وهم له كارهون وسيقف أكثرهم ضده حينما يرون بيرق أحد من ذرية (الإمام محمد) ابن سعود، وذكر الأمير أن تلك المنطقة كانت خير معين لوالده وعمه الإمام عبدالعزيز وجده الإمام محمد بن سعود، ولهم مساهمة معروفة وإخلاص للدرعية في مراحل بدء إنشاء إمارتها. بقي الأمير صامتاً يهز رأسه بالإيجاب كلما تحدث أحد، لكنه في ختام حديثهم شكر الجميع وأثنى على آرائهم، ثم أصدر أمره بسرعة مغادرة المكان قبل الفجر، والتوجه إلى عرقة حتى يقضي الله أمراً كان محتوما.

في ظهر اليوم التالي تكامل وصول الركب، وأخلد الجميع للراحة وبعد العصر تناولوا مع الأمير عشاء أعده أحد كبار أهل عرقة، وجه الأمير ابن عفيصان لسرعة البدء في ترميم الأجزاء المهدمة من حوائط البلدة، وبناء مكامن يختبئ فيها الرماة لصد أي هجوم من الرياض. بوشر في ذلك ببطء وترتيب ضعيف لنقص الأموال والرجال، لكن تعاون الجميع في أعمال الانشاء المبسطة، أدى إلى انجاز تحصينات كافية لدفع غائلة هجوم محدود، وقد شارك الأمير في العمل بيديه ومعه بعض قرابته من آل مقرن بن مرخان. توقع الكثير ألا يرسل الترك عدد كبير من قواتهم نحو عرقة، نظراً لما بدا عليهم في الآونة الأخيرة من قلة ورود المدد، من مصر والعراق والشام واليمن، وبدا أنهم يقصرون جهدهم للمحافظة على مواقعهم، وعدم محاولة التوسع في إقامة مقرات

جديدة. مضت عدة أيام ولم يحدث الهجوم المتوقع، وبدا أن بهلول ليس في عجلة من أمره ليدمر عرقة، وقال آخرون أنه ينتظر انكسار الحر في السنبلة، بينما اعتقد البعض أن أعوانه من العربان انشغلوا في رعاية ثمار النخيل. وفي تلك الفترة جاءهم رهط من سبعان رماح، بأنباء كريهة عن مقتل بعض جماعتهم في حفر العتش (الصمان) والهزيمة التي حاقت بهم وحلفائهم من بني خالد، على يد الدويش شيخ قبيلة مطير والذي عاد للعمل مع الترك رغم العقوبات التي وقعت عليه، وسأل الجد ربه أن يبعد الفتن والاقتتال بين المسلمين، وأن يوحدوا كلمتهم وفكرهم وجهدهم لمحاربة العدو الأجنبي الغازي لديارهم الطيبة، بدلا من تلك المعارك الأهلية مثل ما جرى في الصمان بين القبائل الست من سفك للدماء المحرمة.

في احدى الأمسيات كان بعض الصحب يتسامرون ومعهم أحد آل فقيه، فسأله أحدهم ما إذا كان اسمهم مشتقاً من التفقه في الدين، أو ينسب لوادي الفقاء في ضرما، لكن آخر قاطع بالقول إن الأسماء لا تبرر، لكن ما يلزم إيضاحه هو سبب عدم وقوف بلدتهم مع الأمير. فأجابه أن العناقر ليسوا أغلبية أهل البلدة بل هم سكان مثل السبعان، وقد تمكن في الرئاسة رجال من الخوالد المتضامنين مع الترك في الأحساء، ولهم سطوة على المستضعفين من أكثر الأهالي، لذا سيكون من الصعب إزاحتهم بدون وفرة من المقاتلين، كما أن القاعدة الكبرى للترك تقع في ثرمدا على مسيرة بضع ساعات من ضرما، حيث حصنوها وسمكوا حوائطها وبها مخازن الذخيرة والزاد، وبنوا فيها مهاجع تتسع لعدة آلاف من الجنود، مع كافة مستلزمات المعيشة والأمتعة، إضافة إلى سجن ضخم يتسع لمئات من مناوئي الروم، وبه أدوات التنكيل والتعذيب المخيفة، لكل من تسول له نفسه الخروج عن طاعة سلطان بني عثمان وخليفة الله في الأرض. استفسر آخر عن بقية قواعد الترك في نجد، فوضح له أن هناك قاعدة أخرى أصغر قليلا في عنيزة، وتتسع لألفين من عساكرهم مع كافة أدوات الحرب، وهي على الدرب الرابط بين ينبع والدرعية، الذي تصل عبره الامدادات من مصر، وهناك بعض السبعان يعاونون الترك وغالبيتهم ضدهم. ثم توجد قاعدة كبيرة في الرياض بها نحو ألف من الجنود، مع مراكز حماية صغيرة في مجمعة سدير والدلم وبلدات أخرى، لا يتمركز فيها سوى نفر قليل من الروم وأعوانهم، لكن أكثر العرب دخل في قلوبهم هوان وذلة حتى أن العشرة منهم يهابون الواحد من جند السلطان في إسطنبول.

كان الجميع في قلق لطول انتظار هجوم بهلول عليهم، ولم يدر بخلد أحد أن يبقى الرجل قابعاً في الرياض، بعد أن شاهد محاولة حفيد ابن سعود التعدي عليه، لذا بادر رجال لطلب إذن الأمير للمغادرة لأداء فريضة الحج، وقد وافق لكل من يرغب الرحيل عن عرقة. إلا أنه بعد أيام جاء أحد المخبرين قائلا إن كتيبة من مائتي مقاتل متوجهة نحوهم، ثلثهم من عساكر الترك والبقية من أعوانهم العرب، وبصحبتهم مدفعان تسحبهما ثيران قوية. توجه الجميع للسواتر حتى يتمكنوا من خلفها أن يصدوا الهجوم، وجرى تبادل الرماية المتقطعة لبضع ساعات حتى الغسق، وعند الصباح شاهد الجد

أن المدفعين قد جرى تحريكهما لأقرب مكان من الحائط، وباشر عمالها في تجهيزها ببطء وقلة مبالاة، لا تشبه ما رآه زمن معركة الدرعية بقيادة الباشا قبل خمس سنوات. أمر العفيصان بعض رجاله ممن لديهم بنادق حديثة، لقنص عمال المدافع الذين سرعان ما فر معظمهم لما رأوا جراح رفاقهم، لذا عمدوا لجر المدافع للخلف بأيديهم، حيث الثيران بعيدة ثم أعادوا نظمها في موقع أبعد، ولما باشروا الرماية تبين قصر المدى وقلة الفاعلية. اقترح أحد المقاتلين الخروج للبغاة المشتتين في الشعيب الشرقي، لكن الأمير قدر أن في ذلك مخاطر جمة، وفي الأيام التالية استمرت رماية من على بعد، وأكثر من أصيب هم عمال النخل المساكين، الذين تسلقوا لجلب الثمار فأصابهم القناصة، كما تبين للجد من أعلى مرقبه أن القوم لا يأتيهم الزاد إلا على فترات متباعدة، ثم يتجمهرون حول القليل كل يعمل على أخذ أكبر حصة، غير مكترثين بانتظام هجومهم على البلدة الزاخرة بالطعام. عندما عرض ذلك على الأمير وأعوانه قالوا إن بهلول لم يخرج من الرياض لخوفه من تكرار الغدر في عرقة، وهم يظنون أن مقاتلي سدير قد يرتدون عليهم بهجوم خلفي، لذا عهد للعايذي بتولي القيادة لكنه بدوره خاف أن يلقى مصير قرابته في الحائر قبل شهور، لذا كلف أحد مساعديه للقيام بذلك ومعه أحد مزاريع منفوحة. قبل فجر احدى الليالي سمعوا رغاء ثيران ولغط رجال، ثم تبين أن أحد المدافع قد اختفى من مكانه، بينما اقترب الآخر من التحصينات وباشر الرمي، استعد المجاهدون للرد وقنص من يبلغ مداهم، وبعد قليل سمعوا دوي مدفع في الناحية الجنوبية للبلدة، فسارع قائدهم بإرسال بعض رجاله لمساندة المدافعين عن تلك الناحية، وعاد أحدهم في هلع بالقول أن نحو خمسين من جنود الروم وأعوانهم، قد تمكنوا من الولوج بين البيوت الجنوبية، فأخذ العفيصان كوكبة من مقاتليه من بينهم الجد علي بن حمد، وهرولوا إلى محل الصوت ودخان البارود، فوجدوا الترك في اضطراب داخل الأزقة الضيقة الملتوية وبعضها مسدود، أما رفاقهم العرب فقد دخلوا المنازل يبحثون عن النهوبات، وباشروا فوراً التعامل مع خيالتهم القلائل، العاجزين عن المسير في الضيق بدوابهم الضخمة الثقيلة. بينما هم كذلك في التحام مع الفرسان، وصحبهم في أعلى الدور يرمون المشاة، إذ سمعوا جلبة وصراخ مدوي خلفهم، وشاهدوا الأمير وثلة من رجاجيله على نياق ضامرة سريعة، ولما ترجلوا شاهد أنه قد وضع على ظهره خلف الكتف الأيسر جراب (غمد) فيه سيف قصير كأنه ساطور كبير (كردة!) بينما تمنطق على خاصرته بأربعة فرود وخنجرين، أما أتباعه فيحملون بنادق صغيرة. توجه نحوه اثنان من عساكر العثمانية المرتبكين وسط الأزقة الضيقة، فاندفع نحوهم كأنه أسد هصور قبل أن يسحبوا فرودهم عليهم، وأمسك بيمناه أحدهم من قفاه، وسقطت قلنسوة الثاني فقبض على شوشته ورطم رأسيهما ببعض، فسقط ذلك الذي على يمناه أرضاً، فاستل حديدته من جرابها، وطعن الذي في شماله أسفل سرته فخثله، فلما لاحظ أن ذاك الذي على الأرض يحاول اخراج سلاحه، من بزته سارع نحوه ولطمه بخف قدمه فعاد مغشياً عليه، بينما انشغل اتباعه بمكافحة البقية الذين تقهقر أكثرهم ولاذوا بالفرار للخارج. أُلقي القبض على الجرحى والمستسلمين ووجه الأمير بربطهم بعيداً،

وأمر بسرعة استدعاء البناء ليسد مكان الباب التالف بالحجارة والطين اللبن، حيث لا تتوفر أخشاب ملائمة. حضر الجد استنطاق أسرى العرب والمجروحين، فسارع أحدهم من دواسر الدلم ليقبل رأس الأمير ويديه وركبته، ويعتذر أن آل زقم أجبروه على الخروج مع الكيفران، ويلح على الأمير أن يعفو عنه فعنده صغار يخشى عليهم. أخبرهم أن الرياض فيها نقص العتاد والزاد، وأكياس الفضة والذهب التي عند بهلول انقرضت أو تكاد، ولما أرسل العايذي لقرابته من آل زامل في الخرج ليمدوه، لم يجمعوا له سوى قليل من الريالات الفرانسة الثقيلة (30 غرام) وكثير من الروبيات العمانية والبيزات البرتغالية، متدنية القيمة والغير محبذة في نجد.

لما غاب الشفق وأظلمت السماء لاحظوا أن البغاة في بطن الوادي أشعلوا النار، وظنوا أنهم يزمعون طبخ عشاءهم، لكنهم بعد ساعتين سمعوا دوي المدفع الشرقي، ولاحظوا قذائف من اللهب تتطاير في جو السماء، وتسقط على النخيل فتشعل العسيب الجاف، حيث لم تُخدم البساتين منذ سنتين. وبعد برهة سمعوا قذائف من جهة الجنوب، وتكرر شب النيران في المزارع والبيوت، فساد الذعر خاصة بين النسوة والأطفال، وقال لهم أحد الأسرى أن الروم معهم مكورات من الصوف والشعر والقماش، قد غمست في القطران وببطنها حجارة صغيرة، وتقذف بخليط من ملح البارود الخفيف فتشعل الحرائق. أشار بعض قرابة الأمير عليه أن يهجع الجميع ليرتاحوا من نصب ذلك اليوم، فوجه رجاله لإبعاد الأهالي عن أطراف البلدة ليتجنبوا أذى النيران، وكان الله لطيف خبير فلم تستعر الحرائق إلا قليلا حيث الرياح ساكنة. ساد سكون غريب عرقة في اليوم التالي، واقترح نفر من المقاتلين أن يخرجوا فداوية نحو العدو، ويلتحموا معهم حتى يدحروهم عن البلدة، لكن آخرون حذروا من مغبة ذلك. عند العشي استدعي الأمير أكثر من ثلاثين من رجاله الأشداء، فبين لهم أنه صعد قبل المغرب على سطح أحد الأبنية، ولاحظ بناظوره المقرب ان الرتبة الجنوبية عددها قليل، وخطته أن يخرجوا نحوهم قبيل منتصف الليل ويهجدوهم في الظلام بالحديد، حتى لا يفزع إليهم صحبهم، ويعملوا فيهم الضرب حتى لا يبقى إلا القتلى والبقية يولون الأدبار، ثم تقوم الثيران بجر المدفع الصغير من كوة هناك. كانت الفكرة جيدة قولاً، لكن أحد آل ثنيان رد بأن إنجازها تحفه مخاطر جمة، لكن الأمير أوصاهم بالصبر والله مع الصابرين، انتظر الجد وبقية الجماعة بدء العملية في الليلة التالية، ولما لم يردهم استدعاء ظنوا أن القوم سيقومون بها بدونهم، لكن شيء لم يحدث واختلفت الأقوال عن سر ذلك، لكن أحد عمال الأمراء قال إن لديهم عيون في الرياض، وقد أخبروهم بأمور تحدث هناك أوجبت ألا يتم أي اشتباك بين الطرفين، لكن بعد عدة أيام جاءهم تكليف الاستعداد لتنفيذ ما سبق تخطيطه.

عندما مرت ثلاث ساعات بعد المغرب (الثالثة ليلا بالتوقيت الغروبي) توجهت ثلة من المجاهدين جنوب البلدة، وتولى القيادة الأمير تركي بن عبدالله ومعه عدد من قرابته وعماله، وقد كان يعتمر بيضة الحرب وهي قلنسوة معدنية (خوذة) وعلى صدره قميص

من جلد سميك في باطنه سلاسل معدنية، ويرتدي مثل ذلك بعض مساعديه ومرافقيه، وقد شرح للجد أحدهم أنه يجعلهم يشعرون بثقل الحركة. غادر الجميع عرقة من بوابة صغيرة تجاه الغرب، ثم استداروا جنوباً نحو خيام العدو حيث باغتوا بعض رجالهم وهم نيام، واعملوا فيهم السيوف والخناجر بصمت حتى لا يهب رفاقهم شرقاً للنجدة، لكن الأمور سارت على خلاف ذلك حيث انتبه بعض المتشطرين بعيداً للحركة، وأطلق أحدهم النار من فرده فهب على ذلك آخرون، وجرى التحام بالأيدي والأقدام ثم تطور لتبادل الرماية في الظلام. كان الأمير قدد حدد فرقة من رجاله الأشداء، تتولى قيادة الثيران والمدفع نحو داخل البلدة، لكن لأمر ما لم يجدوا الثيران قرب المدفع في مكانها المعتاد، وكان من المحال البحث عنها في تلك المعمعة، لذا استعانوا بثلاثة من رفاقهم لجر المدفع الصغير لكنه ثقيل للغاية على أيدي الرجال، وقد شاهد الجد من على مقربة الأمير يشارك معهم في ذلك، بعد أن نزع ثيابه وبقي في سرابيله فقط. بداء المدد يصل للعدو من جهة الشرق، وأصدر العفيصان توجيهه للمقاتلين بسرعة حمل الجرحى والعودة داخل البلدة، حيث وجدوا الأمير ورفاقه قد تمكنوا من سحب المدفع، كما تولى البقية التعامل مع جنود الترك الذين حاولوا تعقبهم في الظلام. قبل طلوع الشمس كان المجاهدون قد أخذوا قسط يسير من الراحة، ثم صعدوا إلى مكامنهم وباشروا صد فرقة معادية، حاولت شق طريق للولوج داخل عرقة، ونجحوا في ذلك بعون الله ثم الاستعانة بالصبر على النضال ضد البغاة، ثم بشجاعة ومهارة عدد من المخلصين في مكافحة العدو الباغي عليهم.

مرت عدة أيام وهم على ذلك المنوال يجاهدون لصد الترك عن البلدة، وقد أسعفهم إحضار البعض لكمية من ملح البارود من الدرعية في الخفاء، وكذلك كمية من مستلزمات قذائف ذلك المدفع، الذي ركزه العارفون من الرجال نحو الشعيب الذي استقر فيه العسكر. لوحظ دبيب شيء من الضعف لدى الغزاة، فقد استمر تناقص الوارد لهم من زاد وعتاد وامتعة، كما تضاءل عديد رجالهم بأكثر من الثلث، سواء بالقتل أو الجرح والأسر أو الهروب، والأدهى من ذلك قلة طاعة الله، فلم يسمع لديهم أذان ولا إقامة ولا تهجد، بينما كان المناضلون داخل عرقة في طمأنينة وثقة بالله، ويصلهم مدد من أهلهم عبر أسفل وادي حنيفة، حامدين خالقهم رغم ما هم فيه من شظف، سائليه أن ينزل عليهم مزيداً من السكينة والثبات والصبر ويؤيدهم بنصره. ولم يتأخر فضله سبحانه عنهم ففي ذات صباح استفاقوا فرحين، لما رأوا معسكر جنود الطواغيت وقد صار قاعاً صفصفا، لا ترى فيه إلا فضلات الترك القذرة، فخر الأمير تركي بن عبدالله ساجداً لربه، وسجد معه بقية صحبه طالبين من ربهم المزيد من عفوه وكرمه. اقترح بعض آل مقرن المسارعة في أدبار المنهزمين للقضاء عليهم، لكن الأمير رأى غير ذلك، فأرسل رجال في هيئة رعاة لمعرفة اتجاه المنسحبين، وألا يكون لديهم نية خبيثة للاستدارة عليهم، فجاءه النبآء أنهم متجهين صوب الجنوب الشرقي، وقد تجاوزوا المعذر متجهين للرياض، لذا نصح الجميع بالاستجمام، والتداوي من وعثاء تلك

المنازلة ريثما يتدبر أموره. لاحظ الجد في الأيام اللاحقة كثرة ورود رسائل عديدة، أهمها من منفوحة حيث بعض ألد أعداء الإمارة السعودية منذ القدم، وفيها أيضا نفر من المحبين لها لكنهم في تستر، كما جاء رسل من بعض بلدات سدير والوشم. وعم الحزن أكثر الصحب لما قال عفيصان، أن رئيس الرياض وسيده بهلول المراكشي، أعدوا جيش من مئات المحاربين رغم ما لديهم من شح القدرات، وأنهم سيقودونه بأنفسهم للهجوم على عرقة، والثأر لما أصابهم من هزيمة، والقبض على آخر من بقي في نجد من نسل ابن سعود(محمد) وإرساله مربوطاً إلى الباشا الكبير في قصر شبرا (مصر وليست الطائف!) لكن الثقة بالله ثبتت قلوب أهل التوحيد ونبذ البدع. بعد ليلتين استدعى الأمير تركي حشد من أعوانه ومنهم الجد علي إلى مجلسه، وحدثهم عن أمور تجري في تلك الآونة، وأنه قرر مغادرة عرقة إلى مكان خفي غرباً، ويريد منهم جميعا العودة إلى ديارهم في سكون حتى يدهم اشعار منه، ثم اعتذر لأن ليس لديه ما يقدمه لهم ولا توجد أي غنائم من الترك المتردية أحوالهم، ويسأل الله أن يجزيهم الخير الجزيل. سارع الجميع للقول إنهم خرجوا معه ابتغاء مرضاة الله، لا يريدون شيء من حطام الدنيا ومتاعها الرخيص، سواء المال أو المناصب العليا.

فور وصول الجد للحريق باشر في اصلاح ورعاية شئون أهله وتجارته وزراعته وعماله وبهائمه، ورغم أن ذريته وقرابته قد أبلوا بلاء حسن في تفقد كافة أموره، إلا أن طباعه تأبى إلا الوصول لما هو أفضل، ولكن حكمة الخالق تجعل الناس دائما في معاناة وتعب، ومطاردة الأحوال للوصول إلى الكمال وهو من المحال، فقد قرر سبحانه "خلقنا الانسان في كبد" لذا فعليه بذل أقصى جهده ثم يرضى بما قدره الله له. علم من أصدقائه وشركائه أن أحوال البحر الشرقي مستقرة، بعد أن سيطر الانقليز على الأمن، كما أن بني خالد في الأحساء ناهضوا أهل الفساد وانتشر الأمن، وآل بوسعيد بسطوا نفوذهم على مسقط وصحار وأجزاء من ظفار، كما سكنت أحوال القواسم في الشارقة. لذا فكر في استعادة بعض ممارساته التجارية السابقة بما يعود عليه بالفائدة، وجلب الراحة والسرور لأهله وقرابته وجيرانه، فشد الرحال في الشهر التالي نحو الهفوف، حيث توجد تجمعات زاخرة بأنواع مختلفة من البضاعة، لكن الطرق الميسرة تتيح الحصول على المنتجات بأسعار أفضل في المدن التي على شاطئ البحر. قرر التوجه نحو الشارقة ورأس الخيمة للبحث عن مشتريات جيدة بسعر متهاود، وأثناء انتظاره للقافلة أوصى أحد الرفاق بزيارة تاجر من سدير انتقل للأحساء، قال لرفيقه إن الحريق بها ثلة من الأخيار وقلة من الأشرار والغالبية في تقلب، فهل تعرف هذا السديراوي وطباعه قبل أن ندخل مجلسه؟ فأجابه أن الحريق وسدير صنوان ولن تأسف لزيارة هذا الفاضل. وجد مكان الرجل مليء بالرياش وأثاث فاخر، وجدرانه وأسقفه مزخرفة بنقوش فارسية بديعة، حيث كثير من نخاولة الأحساء لهم قرابة ومزارات في شيراز، وقد احتفى بهم الرجل بحرارة شديدة، حينما علم أنه كان على معرفة بوالده أثناء حرب الدرعية. كان الحديث يدور حول الفتن والاقتتال المستعر آنذاك في سدير، فقال لهم

الرجل وهو "إبراهيم بالغنيم" أن لأهله علاقة تجارية مع الهفوف منذ زمن، وقرابتهم مع الخوالد يسرت لهم نقل السلع إلى جلاجل (عاصمة سدير آنذاك قبل المجمعة) ثم بيعها هناك أو نقل بعضها للزبير ثم بغداد والشام ومصر. تساءل مُجالس معهم عن قوم من بالغنيم في العمارية، فبادر أحدهم بالرد أن أولئك لام قحطان، أما الخوالد فيوجد بعضهم في سدير وآخرون (آل جناح) في عنيزة وفي بقية مناطق نجد، وهم على علاقة متقلبة مع جماعة ضيوفنا السبعان وأشار للجد ورفاقه. وأوضح لهم آخر ان أسلافهم كانوا على علاقة طيبة مع الإمام عبدالعزيز وولده وحفيده (المشنوق) ويجلبون للدرعية الطعام واللباس والسلاح من جاوة والهند وفارس، عبر وكلاء لهم في مسقط وبندر عباس. مدت مائدة العشاء على عادة بين الهفهوف ونجد (قبل المغرب) وكانت عليها أطايب ذكرت الجد بزمن رخاء ملوك الدرعية! لما هموا بالانصراف جاءهم أحد العمال طالباً مرافقتهم إلى غرفة صغيرة في الخارج، وبعد هنيهة جاءهم بالغنيم ومعه أحد اخوته، وأعاد الترحيب بهم قائلا إنهم إذا كانوا يزمعون التوجه جنوباً للتبضع، فعليهم توخي الحذر لأن الأمر مضطرب بين العجمان والعريعر، ونصحهم أن يفحصوا أسواق الحسا لمعرفة نوعية المعروض وكلفته، ثم يقارنوه بما قد يجدون على الشواطئ، ولفت انتباههم أن الفتن الحالية جعلت كثير من التجار يبيعون ما لديهم بسعر متدني، حيث يسهل إخفاء النقود عند الخطر بدلا من نهب الحاجيات. سمع الجد تحاور صحبه وهم قافلون، فبعضهم يثني على مضيفهم وكرمه ونصائحه، وغيرهم يقول أنه يرغب في تصريف البائر لديه ببث الرعب في قلوب الناس.

عند وصولهم لبيتهم وجدوا بعض الساكنين معهم في جدال، حيث أفادهم القادمون أن شطار (قُطاع) الطرق ينتشرون جنوباً، وأنهم يقترحون الذهاب شمالا عند رحمة ويركبون الزوارق من رأس تنورة (كانت مرفأ صغير قبل أن تصبح أكبر فرضة تصدير للبترول في منتصف القرن العشرين) ثم يتوجهون نحو بندر عباس على الشاطئ المقابل، حيث تتوفر سلع جيدة بأسعار ملائمة ويتجنبون أوكار اللصوص، لكن الجد تخوف من مكوس الدمام ومعاملة الصفويين في بلاد الفرس. وبعد تفكير ونظر في البدائل قرر واثنان من رفاقه التوجه لسوق الهفوف، وهناك لاحظوا وجود بالغنيم عند محل كبير توجد فيه الكثير من السلع، لكن الجد استحى أن يراه الرجل عند المقاولة حول السعر، فأوصى أحدهم أن يجلب له العِلم بشأن ما يريد شرائه. حينما وجد ما ينشده من حاجيات تصلح لإعادة البيع في اليمامة أو القصيم، وبنوعية مقبولة وبسعر ينافس المضاربين، قام بالشراء وغادر مع القافلة متجهين غرباً نحو أقصى جنوب تلال العرمة، وهم في قلق وذعر من اللصوص يحثون السير متوارين عن أنظار الطامعين، ولما شارفوا على شرق اليمامة التقاهم رجال العايذي، وبينوا لهم تعريف أهل المنطقة فدفعوا نصف الباجة المقررة (رسوم أو مكوس أو جمرك) ووصلوا الحريق سالمين قبل دخول مربعانية البرد الأشهب في نجد.

لما حقق الجد ربح معتدل من المبيعات قرر ان يسد منه حاجات أهله وما يلزم للمحاويج من المجاورين، وما تبقى اشترى بجزء منه أرض مجاورة لحي آل خثلان، كما استثمر الباقي في استصلاح أرض تقع غرب مكانه، قريبة من حافة بطن وادي الفُرع وبحاجة لجهد حتى تصبح صالحة للزراعة، لذا حفر مجرى صغير للسيل متفرع من أحد الشعبان المنحدرة من الجبل نحو الباطن، وذلك كي تجلب للأرض البور الطين والمخصبات فتحيي مواتها بإذن الله، كما تم رفع بعض الأحجار والجراويل وإزالة المرتفعات، وقام بدفن وردم بعض المنخفضات حتى تستوي وتغدو صالحة للحرث، كما شيد ساتر حجري صغير لمنع فيضان الوادي نحوها حينما يشتد جريانه وتتلاطم أمواجه مرة كل ثلاثين أو خمسين سنة، وبعدها باشر زراعة علف الأب (يشبه البرسيم الحساوي) ليرفع خصوبة التربة ويثبتها قبل غرس الأشجار فيها بسنوات مما اضطره لاستئجار عمالة خارجية تساعد من لديه عند كثرة العمل. ولما نقصت دراهمه عمد لتصريف المزيد من بضائعه، والأصناف غير المباعة المتكدسة في مخزنه ولم يتركها للتلف والقوارض، فقدم بعضها هدايا للأقارب والصحب والجيران والبقية تصدق بها للفقراء.

بعد انصراف نجمي الشبط (النعايم والبلدة) انكسرت شدة البرد في الحريق، وفكر الجد في التوجه شرقاً لمزيد من التجارة، ونصحه بعض رفاقه الذين زاروا بندر عباس بعدم الذهاب إلى هناك. فرغم وجود بعض بضائع مناسبة لديهم، إلا أن أكثرها تلائم المزاج الفارسي، وليس لديهم الا قليلا من منتجات الهند والملايو، وأسعارهم ليست منافسة ولديهم مكوس عالية على الغرباء. والطامة الكبرى أن أكثرهم من الروافض، المبغضين لأتباع سنة النبي الهادي وآل بيته، على خلاف ما يدعونه كذباً من محبتهم. ولما سأل عن أحوال "رحمة" قالوا إن خلافاته مع الجميع في تزايد، وغدا ضيق الخلق سيء المزاج متعكر، إلا أن الدمام والقطيف فيها تجار من سبيع، اختصونا بتعامل فوق العادة ولديهم سوق طيبة متنوعة المصادر، أما الأثمان فهي أكثر من جيدة ولا يغشون البتة. قبل مغادرة بلدته تلمس الجد أخبار الأمير تركي، ولما اختلفت الروايات حول مكان تواجده، اطمأن لعدم تسرب نباء ذلك فمن قائل إنه في ضرما، أو مختبئ في التلال غرب عرقة ناحية جبل الحمض أو خشم زبيدة، وادعى آخرون أنه في معكال شمال منفوحة، حيث بعض مناصريه المبغضين للترك وأعوانهم. وبذلك زال أول أسباب قلقه من المغادرة شرقاً، والثاني كان مالم يعرفه عن تغير حال عساكر العثمانية، ففي الشهور الماضية لاحظ الجميع تدهور وضعهم وقلة مواردهم، فلم يعد لدى الأهالي كثير من الأموال ليصادروها، والوارد لهم من الخارج أخذ يتضاءل حتى من الذخيرة والطعام، وبدا أن قياداتهم تحثهم للاعتماد على المتوفر محلياً وهو شحيح، فما عسى أن يواجهوا في الفترة القادمة؟ والثالث هو كثرة الاقتتال الأهلي في قرى سدير والمحمل والوشم، في نزاع على السلطة والمال لم يكن ليلزمه سفك تلك الدماء. بعد أن فكر في تلك الأمور وأجرى حسابات دقيقة للأحوال، سواء الأمنية أو المالية أو ما يخص أسرته

ومجتمع أهله، قرر الاستعانة بالله والتوجه للقطيف، مردداً "عسى ربي أن يهديني سواء السبيل". لما وصل هناك نصى مكان بعض الرفاق، بعد انقشاع وعثاء السفر تبين له عدم امكانية بقائه في القطيف، وتحمل ممارسات وطقوس الروافض البدعية، حيث لهم في كل شهر أيام لرجل أو امرأة مجهولين يؤدون فيها تصرفات سيئة، ويدعون أنهم يتقربون بها لله ومحبة لآل البيت النبوي، الذي يقدسون من يظنونهم منهم، وفي نفس الوقت يسبون أهل البيت الحقيقيون بنص الكتاب والسنة، وعلى رأسهم أمهات المؤمنين عمدة آل البيت. والحق يقال إن تلك الممارسات يقوم بها ثُلتان فقط، الأولى هم دراويش الرافضة والثانية هم المسترزقون بالدين، وبعض عقلائهم يعرفون ما جر عليهم عسكر الترك من بلايا في الأعوام السابقة عند وجودهم في الأحساء والقطيف، وكيف أن الصالحين من أهل السنة النبوية آووهم وساندوهم أثناء محنتهم مع الترك. كما أن أكثر تجار الشيعة يتسمون بحسن المعاملة مع السنة، إما تُقية أو احترام لسمعتهم في السوق او لزيادة أرباحهم. لذا عمد الجد لأخذ مكان متواضع خارج سور القطيف قرب حصن الدمام، وأمر عماله بإصلاح حاله وتحسين سبل المعيشة فيه، وهياء نفسه للتوجه للسلام على الشيخ رحمة. وجده في ديوانه المتسع وحوله حشد من أعوانه، إلا أن مظهره ينبئ عن تدهور حاله، كأنه لم يره منذ شهور حيث ثقل سمعه وزاد ضعف بصره، كما ازدادت حركة ذراعه السليم في إشارات مضطربة أثناء الحديث، مع حكة مستمرة لبطنه وقفاه وفخذيه، ويبصق ويمخط في وعاء نحاسي بجواره، مع سعال ينتابه حين يكثر استنشاق الأدخنة، وملابسه تبدو من صنف ثمين لكنها مبتذلة. يلاعب طفل لم يبلغ الثالثة ويأكل بشراهة طعام جاف من آنية ينتشر مثلها في المكان، مما يوحي بقوة بواطنه رغم أنه شارف أو جاوز التسعين. لما صافحه وتعرف عليه رحب به بحرارة وأجلسه غير بعيد عنه، ولاحظ أنه يختلس النظر اليه بين آونة وأخرى، ليتعرف أكثر على ما لديه قبل أن يحادثه، فحدق الجد بصره في زخارف السقف ليعطيه المجال للتدقيق، ولما تحدث الرجل ظهرت عليه مبادئ اللعثمة الطفيفة، لكن معاني كلامه تظهر ما عُرف عنه من فطنة وشجاعة وكرم، ففي العقود الماضية كانت له صولات وجولات نافذة، على امتداد الساحل الشرقي من مسقط وحتى البصرة وداخلياً حتى الدرعية والوشم، يصادق هذا ويهادن غيره ويعادي أولئك ثم ينقلب على كل منهم، سواء كانوا من العرب أو الفرس والبرتغال والهولنديين والإنقليز، غير عابئ بعواقب ما يفعل حيث تتغير معاملته بتغير حال الآخرين وبما يحقق مصالحه، التي يضعها فوق كل اعتبار معتمداً على ولاء وشجاعة فرق من رجاله المخلصين الذين ينتقيهم بعناية، ويعتمد حيله الفذة لضرب مناوئيه ببعضهم والخروج بأقل قدر من الضرر.

في اليوم التالي توجه للسوق الكبير الذي يعقد مرة كل جمعة، لكن من يرتاده هم صغار المتبضعين لحاجيات منازلهم فقط، ثم في اليوم الذي بعده ذهب صحبة رجل عينه رحمة، ليرافقه لمقابلة كبار التجار الذين يجلبون السلع المرغوبة من بلاد بعيدة، وقد زار بعض كبارهم في مجالسهم وليس في الدكاكين. لاحظ الجد أن نفوذ شركة الهند

الإنجليزية قوي، وأنها تجلب البضائع من كافة أرجاء الصين والهند وفارس وبلاد الزنج، بل ومن غرب أوروبا وأمريكه التي لم تخمد بعد حربها معهم منذ أكثر من أربعين سنة، وهي بضائع يصلح بعضها للاستخدام في اليمامة والقصيم، كما يمكن ارسال جزء منها للشام مع القوافل. وجد لدى أحدهم خزائن ممتلئة بالسلع المنوعة الدرجات، تصل إليه عن طريق وكلاء تلك الشركة واسعاره متهاودة، وبينما يجهز إتمام عملية الشراء، لمزه رفيقه بالتريث للغد، وفي المساء تقاول مع الصحب حول ذلك، فأكد غالبيتهم أن القطيف ميناء منزو لا ترده سفن البضائع الكبيرة، وقد يكون من المجدي التوجه إلى مرفأ أكبر، تتوفر فيه أصناف أكثر وبأسعار مجزية، قرر التوجه نحو الشارقة عله يصيب ربح أوفر. انتظر طويلا ريثما وجد قافلة متوجهة إلى هناك، كان الهواء معتدل البرودة في أواخر مربعانية شتاء نجد، لكن عواصف ترابية شديدة واجهتهم في الدرب لما دخلت عليهم الشبط، ولما حلوا في الشارقة كان دفء الشتاء قد عم البلدة التي تقع على ساحل فسيح من البحر، وهي بعيدة عن الجبال الجنوبية والشرقية، على خلاف رأس الخيمة التي زارها من قبل ولم يسترح لهوائها الغليظ المشبع بالرطوبة. اليم في الشارقة أزرق المياه صافي الملامح يبعث على الانشراح، تهب منه نسائم شتوية عليلة نهاراً وتكون باردة ليلا، على خلاف ساحل القطيف المتسخ بالغيول وفيه مناقع آسنة، وتكثر فيه الأشجار لوجود مياه سطحية شبه عذبة، مما يساعد على تكاثر أصداف المحار واللؤلؤ. أما ساحل الشارقة فشحيح المياه الصالحة للشرب أو للزراعة، لكن صفاء بحرها يساعد صيادي الحوت على التوغل فيه، وعلى مبعدة نحو ساعتين شرقها يوجد خليج صغير (قناة) يدخل في اليابسة مسافة بعيدة، توجد فيه كثير من السنابك والزوارق المختلفة الأحجام يسمونه خور دبي، وهو غير مدينة دبا غرب الشارقة باتجاه جبال عُمان، وظن أن التسمية ترجع لتكاثر صغار الجراد هناك، وذلك لوفرة الرمال الصالحة لحضانة بيوضه الخبيثة، وذلك الخور يزداد زحامه وقذارته عندما يهيج الموج حيث يعتبر ملاذ آمن. رؤساء البلدة من القواسم ولم يكن لديهم مجالس عامة، بل على القادم للسلام عليهم أن يجرب حظه بأن يلقى الترحاب أو الابعاد حسب ما يراه الحاجب الغليظ على الباب، وقد نزه الجد نفسه هو وجماعته عن الذهاب إليها وبخاصة أن ليس لديهم مُعرّف من المحل. ولما تساءل البعض عن كنه القواسم وأصولهم، قال أحدهم أنهم عمونيون من قحطان، لكن الأقرب أنهم قريشيون كانت لهم علاقة وطيدة مع الإمارة السعودية في الدرعية، وشعائر الإسلام قائمة بقوة على تعاليم ابن عبد الوهاب، والصلاة جامعة لمعظم السكان في مواقيتها الخمس، خلاف بلدات كثيرة مجاورة لا تمارس ذلك، رغم وجود واضح لعدد غير كبير من عساكر الانقليز في الشارقة. وسوقها يعج بكثير من السلع من نوعيات وجودة متباينة، وأوصى متعاملون من يرغب بالشراء الذهاب لرأس الخيمة، التي تعج بعدد غفير من المتاجر ومخازن البضاعة، لكن معضلة الجد لم تكن في فرق طفيف في السعر أو الجودة، لكنها مشكلة أمن الطريق من الشارقة أو الرأس إلى جنوب اليمامة، حيث يعج الدرب بأعداد من سفهاء العجمان ممن يؤذون السابلة، وقد يتعرضون لأموال ودماء

وأعراض مرتادي الطريق، وهو مما يجعل سلوك ذلك الممر مخاطرة قد لا تحمد عواقبها، وتستلزم إعادة التفكير في العواقب وسبل تفادي الأخطار.

ذات ليلة قال أحد الرفاق أنه تعرف على أحد العاملين مع شيخ من القواسم، وسيلج في مجلسه لا ليحتسي قهوته، ولكن ليستطلع ما لديهم من علوم وأخبار، ولما عاد في اليوم التالي جاء بقدر كبير من الأخبار، لم يبال الجد بشيء منها سوى ما قاله عن ظهور الأمير تركي من مخبأه. عرف منه أن مصدر النباء أحد مجالسي القواسم، وأن ذلك قد جرى قبل نحو شهرين بعد أن تخفى في قرية يقال لها عجاجة، ثم جاءه العفيصان مع ثمانين رجل وباتفاق مع أنصار ابن سعود داخل ضرما، ثم ولجوا ليلا داخل البلدة فلما أحس بهم رئيسها (سياري الخوالد) المتعاون مع من تبقى من جند الترك في ثرمدا، تحصن في قصره وحاصروه برماية مكثفة فهرب وزبن المسجد مع رجاله وهو مصاب، لكنه توفي في اليوم التالي متأثرا بجراحه. بعدها سلمت البلدة لتركي واستقر في القصر وبايعه الناس، وهو الآن يعد للدفاع عن الديرة من هجوم عسكر الروم. فرح الجد لذلك النبأ وساءه الاقتتال في بيت الله، لذا عزم على العودة لنجد على عجل، وتأكد لديه خطر الطريق من الشارقة لليمامة، لذا صرف النظر عن شراء مزيد من البضائع من الشارقة والمغادرة مع قافلة تأهبت للرحيل للقطيف. هناك توجه لشراء كمية من الثياب والقُزح (توابل بيهار) ومطيبات الطعام خفيفة الوزن غالية الثمن، وبعض الأواني والعطور، لكن أحد رجال رحمة شاهده وألح عليه الحضور للمجلس بعد العصر، فعاد الرجل ليواجهه بالحفاوة المعتادة والسؤال عن أحواله والحرص على سلامته، وأعاد تأكيده على استعداده لإقراضه إذا لزمه مزيد من الدراهم. وجد قافلة متجهة للخرج فصحبهم من فوره، حيث يرغب الصيام عند أهله في الحريق، لكن الأمور جاءت على غير ما يشتهيه، فقد لاحظ السبور (طلائع الكشافة) وجود عصابة ممن يشطرون الطريق. لذا قرر رئيس القافلة الانحراف يمينا واتجه نحو الشمال، ودخلوا الجزء الجنوبي من تلال العرمة، حيث تختفي في حجارتها آثار ركائبهم، ومن المعروف أن أولئك العصبة من عتاة اللصوص الذين لا يكتفون بمصادرة جزء من المال والسلع، بل يعتدون على الأرواح ويسرقون ويفسقون. أدى سيرهم الوئيد لتأخرهم حتى دخل الشهر الفضيل، ثم مروا بسلام لليمامة بعد دفع الباجه المخفضة لرجال ابن زامل، وأمر أحد عماله بالتوجه بالأحمال نحو محلهم في الحريق، بينما انطلق خفيفا مع الآخرين غرباً نحو المحمدي، حيث أتم الجد صيام وتهجد أواخر الشهر في سكون. ولم يلقي بالاً لأقاويل طائفة من الناس حول استعانة الأمير بكتيبة مسلحة من أصهاره العجمان، وأن ضمنهم مقاتلين من "المكرمية" الذين يختافون مع البقية في المذهب والطبائع، ويعرف الجميع أن العجمان والمكرمية كلهم ينحدرون من قبيلة يام القحطانية الواسعة التي تضم أقوام من مشارب مختلفة. في صلاة العيد تعرف عليه أحد السبعان وأصر أن يشاركهم الطعام والبقاء معهم بضعة أيام، لكنه اعتذر منه لرغبته التوجه

لضرمى، فقال له إن تركي قد غادرها متجها نحو سدير، وأنهم يعدون للتوجه شمالا نحو الحاير، فوافق على مرافقتهم ومعه سلاحه ودرعه وذخيرته.

أخبره جماعته هناك أن الأمور لما استقرت في ضرما، ولم يتقدم أحد من الترك لنجدة الخوالد، فقد غادرها الأمير متفادياً المرور على المحمل، حيث أن سدير قد توحشت فيها الحال وزاد القتال بين أهالي البلدات لبعضهم البعض وبين الأقارب، واستعرت حرب ضروس في عاصمة المنطقة (جلاجل) لم تكن بين الأهالي والعدو الغاشم الأجنبي لكنها بين أبناء الديار (الوطن) في نزاع قبيح على الرئاسة والمال، وجلهم من عشيرة الدواسر يفترض أنهم إخوة متعاونين ضد الغريب، الذي جاء ليخرب البلاد ويقتل العباد. وأما في المحمل وعاصمتها حريملاء فقد شبت الفتن، منذ غادر الإمام عبدالله بن سعود الدرعية أسيراً، وتولى زمام أمور البلاد إبراهيم باشا الطاغية، فقام آل مبارك (الراشد) بانقلاب على رؤساء البلدة من آل الزير، وجرت أحداث كريهة وأخرجوهم من أماكنهم، لكن بعد فترة قصيرة أطل الشيطان بوساوسه، وانقلب آل راشد والمبارك على بعضهم البعض في أحداث بشعة، والعائلات الثلاث كلهم عنوز يفترض أنهم إخوة لكن الفتنة دميمة. قال أحد سبعان الحاير للجد أن قبيلتهم ليست استثناء من تلك الحوادث القبيحة، فقد جرت مقتلة في عنيزة وصراع للفوز بالسلطة، بين فروع سبيع من الجراح والفضل وبني ثور، وهي وإن كانت على نطاق محدود إلا انها مستنكرة، حيث سبيع ليست من القبائل المتعطشة لسفك الدماء، لكن الوجود التركي المتغطرس أشعل الفتنة بين المسلمين، وشجع عليها السفهاء من كل الأطراف. تألم الجد والحضور من تلك الأنباء المفجعة، وذكر أحدهم قول الشاعرة ترثي أخاها: ـــ

منـي إليك وعبـرة مســفوحة ******* جادت بواكفها وأخرى تُخنـقُ

ظلت سيوف بني أهله تنوشه ******** لله در أرحام هنـــاك تُمــزقُ

صبراً يقاد للمنيـــة متعبـــاً ******** رسـف المقيد وهو عـان مُوثقُ

ومثل هذه الفتن قبل قرنين حدثت في وسط جزيرة العرب، واليوم بينما أراجع مسودة هذه السيرة، أتألم مثلكم حينما أرى أهل الإسلام في سوريا واليمن وليبيا وغيرها يقتتلون على حطام الدنيا الرخيص، أو اتباعاً لنعرات قبلية مقيتة لا طائل منها، نسأل الله الصلاح للجميع وأن نأخذ العبرة مما جرى في ديارنا قبل قرنين، وما يجري الآن في الدول المجاورة لنا، ونسأله تعالى أن يجنبنا الفتن، فهي كما قيل منذ القدم:ـــ

لا يصلح القوم فوضى لا سراة لهم ******* ولا خير فيهم إذا جهالهم سادوا

والبيـــت لا يبتنـــى إلا له عمـــد ******* ولا عـماد إذا لم ترسى أوتـادُ

لكن تلك الأحداث التي تزايدت حتى بلغت الزبى في سدير، انبرى لمكافحتها نفر من الأخيار، الذين ظنوا أن صلاح الأمر لن يتم إلا بالالتفاف حول قيادة نبيلة، والاعراض عن رغبات المولعين بالرئاسة المحبين لسفك الدماء المحرمة. لذلك سارع العقلاء لمناشدة الأمير تركي للقدوم نحوهم، وكسر شوكة محبي الفتن والخراب، ولم يتأخر في الاستجابة بل غادر ضرما في صحبة مائتي مقاتل يقودهم العفيصان وبعض عماله، وأخذ معه من البلدة رؤساء الخوالد خشية إثارة البلابل بين البسطاء ونشر النعرات الزائفة، وعند وصوله قاعدة سدير وجد حشد من الصالحين حملوا سلاحهم وعتادهم لتأييده ضد الطغاة، الذين سرعان ما سلموا أمرهم وأذعنوا للسلطة الشرعية، ونبذوا الفكر الجاهلي الداعي للاقتتال بين الأهل، وتقدم لمبايعة الأمير كافة الصالحين طمعاً في جلب السكون والرخاء للبلاد، كما بايعه بعض المفسدين خشية انفضاح أمرهم. ثم توجه نحو بقية الديار في سدير، وانضمت إليه حشود مؤيدة قدموا أنفسهم ومالهم لمساندة جهود الإصلاح، وقد عثر في خزائن بعض الموالين للعثمانية سلاح وفير، تركه العدو قبل انسحابه من المنطقة.

شعر الجد بالحبور لتلك الأنباء السارة عن تمكن الأمير تركي من امساك زمام الأمور، وراعه ما سمعه عن الاقتتال الأهلي في سدير، وناشد الجماعة أن يهبوا مسرعين للتوجه شمالا للحاق به. لكنهم أفهموه أن هناك خطر داهم من عساكر الترك في الرياض وأعوانهم في اليمامة، كما أن منطقة المحمل لم تسكن فتنها بعد، وقد خشي الأمير من أن يتضامن ضده مبارك حريملا وعايذي الرياض وزقم الدلم، ويلتفوا عليه من الجنوب ويقضوا على حركته وهي في مهدها، لذا أمرهم بالبقاء متربصين للعدو ويتسمعون أخبار الخرج ويبلغوه عنها في جلاجل. قبل الجد ذلك على مضض فهو من غير المحبين للنضال جالساً في المقهاة، لكنه اضطر مكرها على ذلك حتى لا يخالف أمر الزعيم أو يشذ عن جماعته. وبعد عيد الضحية وردتهم أنباء بديعة عن توجه الأمير تركي لحريملاء، حيث وجد زعيمها القوي الشرس "بطاح" قد أعد تحصينات قوية للديرة، ونشر المسلحين في البساتين خارجها، لمنع بقية الأهالي من مبايعة الوالي الشرعي من ذرية المؤسس محمد بن سعود. وكان المبارك غير راغب البتة في التخلي عن السلطة التي اغتصبها خلال الخمس سنوات الماضية، عبر سفك دماء القرابة والاستيلاء على مالهم، والاستمرار في قبول التعامل والتواطؤ مع الغزاة الترك. لكن الأمير كان قد أخذ من سدير أربعة مدافع تركية صغيرة، وباشر في حصار البلدة ودك سورها، وهدد المبارك وصحبه بالذبح صباح العيد مع الأضاحي إذا لم يأتوه مبايعين، لكنهم تعنتوا وركب الشيطان رؤوسهم. ثم ورد إلى الحائر خبر سار بأن الأمير تركي تمكن بطريقة ما، أن يدخل البلدة صلحاً ويتجنب الافساد والتخريب لديار المسلمين، ومع الخبر أمر منه بالتوجه من الحائر نحو معكال بكامل العدد والعتاد.

وجدوا هناك رباط به حشد من المجاهدين جاءوا من تمير ورماح وبنبان، زمخيم به خدم وتجهيزات المعيشة، وانقسم القوم إلى عدة خُبر (جماعات) كل منها في بيت شعر،

وبجوارهم الحطب وأماكن اشعال النار واعداد القهوة وطعام خفيف، وقالوا لهم إن الغداء سيصلهم عند الضحى والعشاء بعد العصر، يعده طباخون حاذقون وعليهم تسخينه وغسل الأواني. المكان متسع وأرضه شبه منبسطة، تجاوره تلال ترابية وحجرية تصلح سواتر، وتنتشر على مقربة عدة مزارع وبساتين، ويوجد بها أحواض ماء عذب للشرب، ومناقع مياه للغسل وللدواب، والعمال في الجوار كرماء يتعاونون مع المجاهدين بحذر. وعلى مبعدة بيوت قليلة يسمعون أصوات بهائمهم ولا يقتربون منهم، والمكان يبعد عن دخنة (جنوب الرياض) قليلا، ويقع شمال الحبونية بأقل من ساعة، ومنفوحة باتجاه الجنوب الشرقي قريبة مثل ذلك. وأتوقف لحظة لأبين للأحبة أن أول مسكن أخذته في الرياض، كان على الشارع الرئيسي في معكال، وذلك بعد أكثر من قرن على تلك الأحداث (ستينات القرن العشرين) حيث تطورت القرية الصغيرة لتصبح أحد أحياء الرياض الحديثة، وهذه البلدة أقدم من الرياض كثيراً حيث سكنت في عصور متباينة قبل الإسلام، وأعشى منفوحة سكنها قبل كتابة معلقته الشهيرة ، وكان يحد الحي آنذاك من الشمال سوق الغنم شرق محكمة دخنة حاليا، ومن الشرق وادي الوتر (البطحاء) ومن الغرب قصر الأمير عبدالله عم الملك سعود وإخوته، ومن الجنوب قصر وبستان الأمير محمد أكبر أعمامهم. لم يكن في ذلك الحي سوى شارع واحد مسفلت، يتجه من الغرب (سلام) للشرق وعليه مباني خرسانية حديثة بها دكاكين، وقد استأجرت مع أخي زيد احداها يوجد أسفله مخبز كبير يوقد بالكيروسين، وكان العم رشيد قد وافق على مضض أن أغادر السكن عنده، وأوصى بأخذ مكان قرب المربع في المنطقة الحديثة، التي بناها الملك سعود حينما قرر نقل عاصمة السعودية من مكة امكرمة للريلض، لكن أخي سعود بن علي رأى غير ذلك، وأوصى بمعكال حيث فرق الأيجار يتيح شراء سيارة (خنفساء) توصلنا للجامعة ةنقضي عليها أوقات طيبة، وكان يرحمه الله يسكن على مقربة (غرب قصر سلام) ولما ذكرت معضلة الفرن أسفل البناية، أشار بقبضة يده أن الدفاية بذلك الحجم تشترى بمبلغ ! وأنتم ستتنعمون بدفاية عملاقة مجانية، وفي الصيف عطلة جامعية تذهبون لأهلكم. تحملنا ذلك شهور قليلة ثم أمرضتنا الأدخنة، وطبيعة السكان والحركة على الطريق الرئيسي في الحي، فتنازلنا للمالك عن باقي المدة وانتقلنا لمنزل مستقل بعيد عن الضوضاء. لم يكن كافة سكان الحي بسطاء، بل غربه وجنوبه أمراء وشماله أسر عريقة، غهناك يقطن آل فريان ومزارعهم، على الشارع الممتد نحو الجنوب، كما يسكن هناك قوم من آل ادريس وسلمه ودخيل وغيرهم، لكن تجار العقار اشتروا بساتين وأراضي قاحلة وأقاموا فيها بيوت صغيرة مبسطة، سكنها بعض البادية الرحل مما أخل بوضعه. كما أشير أن المدرسة المحمدية، تقع في الحي أمام قصر سلام، وكان يديرها المربي الفاضل الأستاذ حمد بن عبداللطيف آل الشيخ، من أهل الحريق الكرام رحمه الله. وقبل ربع قرن أخذت بعض الذرية لمشاهدة الأماكن التذكارية، فوجدت وسط معكال قد زاد حالها سوء نسأل الله العافية والسلامة، ونعود الآن لسرد ما حدث لجد الجد قبل مائتي سنة في ذلك المكان التاريخي.

أقبل عليهم الأمير تركي بن عبدالله يصحبه جيش من مئات المقاتلين، أكثرهم من سدير والمحمل مدججين بسلاح عثماني حديث ومعهم مدفعين صغيرين، وبعد أيام من تفقد المكان وتحصينات منفوحة، تقرر إرسال فرقة صغيرة معهم مدفع نحو الجهة الشمالية للبلدة، وفرقة أخرى من مائتي مقاتل تتجه جنوباً. كان الجد مع تلك الفرقة التي يقودها ابن عفيصان، الذي وضع خطة الهجوم الذي سيبدأ عند الفجر، حيث سيفتح بعض الأنصار (من آل مزروع أخوال الأمير تركي) البوابة الجنوبية من الداخل، بمجرد سماع دوي المدفع من جهة الشمال، كان الجد يقود خبرة من عشرين مقاتل، وعندما فتحت البوابة انطلقوا بصحبة المناصرين نحو مكان عساكر الترك، الذين وجدوهم أعلى الدروازة الشمالية، يحاولون تبين ما يحدث في الخارج في عتمة الفجر، ويستترون من رماية المدفع الصغير. حالما سمعوا دبيب أقدامهم استدار الترك وأمطروهم بوابل من الرصاص، فأصيب بعض رفاق الجد فاتجه مع البقية نحو جدار قصير وردوا عليهم بالمثل، وقرر أن يتسلقوا جدار أعلى ومن هناك تمكنوا من رؤية العدو بوضوح في أول خيوط الصبح، وباشروا رمايتهم فصرعوا أربعة منهم، فسارع البقية للاختباء خلف ساتر، وكان عددهم أدنى من ثلاثين رجل منهم جرحى. هبط الجد ورفاقه نحو السطح وأخذوا يتداولون في طريقة الالتفاف على البغاة، وأثناء ذلك برزت لهم فوهة إحدى البنادق مربوط عليها قماشة بيضاء، فعرفوا أنها إشارة التسليم عند الترك، وصاح فيهم أحد أهالي منفوحة الشرفاء بلسانهم، أن يتركوا سلاحهم ويخرجوا رافعي أيديهم فوق رؤوسهم. ولما قيدوهم لم يتمكنوا من الخروج بهم عند القائد، حيث كانت هناك رماية مستعرة على الطرف الآخر، تبين لاحقاً أنها عند مقر المزروع (أمير البلدة) وهو ليس من عترة أخوال تركي لكنه من نفس العشيرة. وعند بزوغ الشمس تبين للجميع سقوط عدد من الترك بين قتلى وجرحى وأسرى، كما هرب البقية ولم يعد من المجدي المزيد من المقاومة. لما عادوا إلى خيمتهم تناولوا القهوة والتمر وحليب النياق، وأراد البعض النوم في ساعة الصفرة، ثم جاء عمال الطبخ ومعهم قِدر به جريش (حبوب الحنطة المكسرة) وقد طبخت في آخر الليل مع اللبن الحامض وكم وافر من السمن الذائب، لكن القِدر كان باردا رغم حرارة الجو، فوضعوه على النار لتسخينه وسارع البعض إلى بستان مجاور، وخرفوا من نخيلاته قليلا من الرطب البديع.

استقروا في معكال بضعة أيام جاء أثناءها وفد من الوشم، بايعوا الأمير تركي على الولاء والطاعة، ومعهم سلاح وذخيرة ومال من خرص ثمار ديارهم، حصة الحاكم منها، وليتقوى بها على محاربة البغاة الترك. أرسل الجد أحد قرابته ممن له لزوم في الحريق، ليخبر الجماعة أن الأمور قد اوشكت على الاستقرار، ومن الأفضل المسارعة للقدوم نحو معكال، والقيام بما هو واجب تجاه ولي الأمر الجديد. في أثناء ذلك بلغهم أمر بالتوجه شمالا نحو الرياض، المسيرة إلى هناك أقصر وأيسر منها نحو منفوحة، وقد اتجهت الحشود الغفيرة للحصن الذي بناه "دهام" تكملة لبناء سابق كان موجوداً

قبل قيام إمارة محمد بن سعود، ثم جرى تدعيم حوائطه وتعليتها، مع إضافة برجين في جهة الشمال الغربي. اختار العفيصان موقع شرق القلعة لتستقر فيه الكتيبة التي بها الجد علي، على مبعدة من مدى رماية بنادق القوات المتمترسة فيها، ولا يبعد كثيراً عن الضفة الغربية لوادي الوتر (مجرى البطحاء) بينما توجه هو وبقية القوات إلى غرب الحصن، حيث توجد قرية صغيرة حولها زراعات طفيفة يقال لها "مقرن" يليها صياح. أما الأمير تركي فقد خيم مع فرقته الخاصة شمالا قرب "شلقا" وجنوب مزرعة كبيرة يقال لها "الشمسية" حيث أقيمت في الفلاة متاريس يمكن الاحتماء خلفها، من قصف مدفع صغير جرى نصبه أعلى البرج الكبير، أما مدفعي آل سعود فقد توارت في الخلف لاعتبارات غير مفهومة للجد. اكتفت القيادة بحصار جزئي للرياض، حيث منع كافة المجاهدين من إطلاق النيران تجاه العدو، بل وسُمح لبعض من بالداخل أن يخرجوا على ركائبهم متجهين نحو الشمال الغربي، كما يدخل بعض القادمين بسلاحهم الشخصي إلى الرياض، وجرحى عساكر منفوحة دخلوا عند رفاقهم المحاصرين لتلقي العلاج. إلا أن المعضلة كانت فيما نمى لعلم الجد من تبادل للرسائل بين الأمير تركي وبهلول، لم يعلم أحد عن كنهها شيء.

عاد مرسول الجد إلى الحريق بنبأين، اولهم سيء وهو رفض غالبية أهل الحريق القدوم للرياض ومساندة الأمير، حيث كانوا في خوف من سطوة زقم بن زامل، المسيطر على كافة بلدان جنوب اليمامة، والذي كان يقع تحت هيمنة صهره العايذي في الرياض، والذي هو بدوره يخضع لأوامر مندوب الترك بهلول المراكشي، وذلك في تناقض واضح مع موقف الصهر الآخر للعايذية، وهو العفيصان الذي اختار الوقوف مع آل سعود كما كان أسلافه. أما النبأ الثاني السار فهو أن ابنه عبدالله قد رزق بولد سماه زيد، وبذلك ازدادت ذريته فسألا الله أن يطرح فيهم البركة، وبعد أيام وصل للرياض حشد من آل خثلان وبعض شجعان الحريق الذين لم يبالوا بتهديدات زقم، وقرروا الوفود على الأمير تركي، والمشاركة في إجلاء جنود آل عثمان عن الديار. في أحد الأيام توجه الخثالين إلى مجلس الأمير، الذي لقيهم بالترحاب والبشاشة كعادته مع كل زائريه حينما يصفو خاطره، وعاهدوه على النصرة والتأييد في المنشط والمكره، وارتبك البعض في مخاطبته بالإمارة أو الإمامة، لكن الجد لاحظ أن معظم مجالسيه والمقربين ينادونه بطويل العمر أو الأمير. سألهم عن أحوال بلدتهم وثمار نخيلهم في ذلك الموسم المبارك، ثم استفسر عن بقية جماعتهم وعن أهل بلدتهم، فأجابه كبير آل خثلان بكلام متجمل فيه تورية. مرت جمعتان وهم في الخيام العثمانية وبيوت الشعر العربية، وتسلل الملل والاضطراب في نفوس البعض، وتداولوا جدوى البقاء على هذه الحال، بخاصة أن تمورهم قد خُرفت أكثرها وهي بحاجة للكنز بعناية حتى لا تتلف، وقرر عدد منهم العودة للحريق، وناشدوا الجد لمصاحبتهم لمشاهدة الحفيد الجديد "زيد بن عبدالله" لكنه أبى المغادرة حتى يؤذن له، وأما الحفيد ففي رعاية الله ثم أبويه ودعا الله له بالصلاح والعافية. كثر تسلل المقاتلين لديارهم وبخاصة المحمل والوشم وسدير، وتناقص عدد

المحاصرين للرياض في غير اشتباك ولا رماية، وبقي القوم حول البلدة في الخلاء، والدرب للخروج منها ليس متعسراً لكن الدخول ضيق، وأخبار ما يجري المراسلة به غامضة ومتضاربة. ذات صباح باكر أمرهم رؤساء الفرق بالإعداد لرحيل من شاء لبلدته، لكنهم أوصوا المخلصين بالتوجه صحبة الأمير تركي إلى عرقة، التي لا تبعد عن "مقرن" سوى سويعات قليلة، ولم يتردد الجد في المسير نحوها ومعه عتاده وعدته وعماله، في رفقة رهط من القرابة والصحب. لاحظ أثناء توجههم غرباً (بميل شمالاً) قدوم مئات من المسلحين، يحثون ركائبهم للإسراع نحو الرياض، وأمروا بالانحراف يسار الطريق لتجنب التعرض لهم، فلما وصلوا عرقة كثر القيل والقال عن الأعراب الذاهبون للرياض، وبين لهم العارفون أن أولئك من المطران، بقيادة أحد أبناء شيوخهم من "الدوشان" يزمعون تعزيز دفاعات الرياض.

تحادثوا ليلا عن دور "مطير" في مساندة الإمام سعود قبل خمس عشرة سنة في مسقط وغيرها، لكن لما وصلت قوات طوسون باشا للمدينة المنورة (قاعدة غطفان) رأوا من صالحهم ترك آل سعود، وساندوا الباشا الكبير (محمد علي) ثم حملوا سلاح وذخيرة ولده ابراهيم باشا إلى نجد، وساعدوه في حرب الدرعية وما زالوا على ذلك. ثم شاعت بين القوم أقوال متناقضة، فالبعض يقول إن المطران وصلوا باستدعاء من بهلول والعايذي المحاصرون في الرياض، بينما يدعي آخرون أن قائد حامية ينبع هو الذي ناشدهم لسرعة التوجه لنجدة المئات من عساكر الترك داخل الرياض، ثم راجت أقوال أخرى بأن الدويش هو الذي تبرع بنفسه للقدوم للرياض لفك الحصار عنها وكسب الغنائم. إلا إن القلق والاضطراب كان فيما أسره أحد المقربين للجد، عن وجود تفاوض بين الأمير وبهلول، لترتيب انسحاب كافة القوات التركية من وسط جزيرة العرب، لقاء ضمان تركي لهم بتأمين طرق التجارة وزيارة الحرمين، ودفع خمسي الأموال المتحصلة إلى مندوبي السلطان محمود، مع عدم التعرض لمنطقتي الحجاز والأحساء، أي أن دوره سيشبه ما عليه الشريف والعريعر، بالعمل مأمور للترك في نجد. فكر الجد في ذلك وظن أنه رغم خِزي ذلك المنصب، فيمكن قبوله في فترة الضعف والفتن، وعندما تهدأ الحال وتنضوي كافة الديار النجدية تحت راية واحدة، يمكن التصرف في حال أفضل يضمن عودة الحكم بشرع الله، بدلا من فرمانات إسطنبول الكريهة وممارساتها البذيئة. بعد أيام جاء نبأ يقين برحيل الدويش مع كافة مطرانه عن الرياض، إلا أن الأقاويل المتناقضة ترددت بين الناس، حول حدوث خلاف بين العايذي (القحطاني) والدويش (المطيري) لحزازات قديمة بينهم، لكن بهلول حسم الأمر بإجلاء المطران عن الديرة. مضت أيام والحال في سكون وفي عصر أحد الأيام جاء أمر من العفيصان، لشد الرحال نحو الرياض فتوجهوا ببطء نحوها، وسبقهم العمال حيث أقاموا منزل مؤقت غرب الرياض، في مكان به تلال متوسطة وزراعات متفرقة وآبار مياه، وهو شمال شرق "صياح" القرية الصغيرة الهادئة. كانت المراسلات متصلة بين الأمير وحاكم الرياض "بهلول" وعامله "العايذي" إلا أن الحصار غدا أكثر احكاما، وعندما

حاول بعض القادمين من القصيم التسلل داخل البلدة، بطشت بهم قوات ابن سعود وفر من نجى منهم. بعد ذلك جاءهم أحد البطانة ببشرى سارة، حيث جرت مصالحة بين الأمير وبهلول، ليسمح له بالمغادرة نحو الحجاز مع كافة عساكره، بسلاحهم وعتادهم ومؤونتهم وخدمهم ورواحلهم، أما العايذي وقرابته فله ضمان سلامته حتى يصل إلى مأمنه، وبرفقته كافة سلاحه وماله وأمتعته ودوابه، وقد توجه نحو الشمال الغربي إلى جهة مجهولة، ترافقه ثلة من جنود آل سعود. وبعد ظهر ذلك اليوم بدأت طلائع المجاهدين الدخول من بوابات الرياض، التي غدت مدينة مفتوحة لكنها مضبوطة من العبث، ثم توجهت فرقة الجد للدخول حيث ظن بعض المرجفين أن الأمير معهم، فجاءوا معتذرين يحلفون بالأيمان الغلاظ أنهم كانوا مغلوبين على أمرهم، وغدوا مسرورين أن مكن الله ابن سعود أن ينقذهم ويطرد الأشرار وأعوانهم الخونة، ثم انصرفوا مسرعين لما علموا عن غياب الأمير، الذي ولج من البوابة الشمالية في ركاب مهيب، يحفه لفيف من ذرية بنو عم والده (آل فرحان ومشاري وثنيان) مع حشد من أتباعه وخدمه يرتدون لباس الحرب، والبعض عليهم المرودن والزبون الموشى بالقصب.

سارع أعوان الأمير لضبط قصر الحكم ومقر بهلول والعايذي خشية النهب، ووجدوا شيء من المتروكات الثقيلة والثمينة، أما ما خف حمله وغلا ثمنه فقد أخذه البغاة معهم. ولما أقبل أحد محبي آل سعود من الوشم، ارتجت الحال بخبر تأهب بعض العناقر لتوفير الدعم للترك، ومساعدتهم للبقاء عند بنو تميم هناك، لذا سارع الأمير بالمغادرة نحوهم، قبل أن يهنأ المجاهدون بقسط من الراحة. أثناء مسيرهم نحو سدوس شاهدوا على ميسرتهم بهلول ومئات من عساكره، وهم يمشون الهوينا متجهين نحو الحيسية، للنزول من طويق ذاهبين للوشم، وقد أشار بعض القحاطين على الأمير تركي أن يأذن لهم للهجوم عليهم، وسلب ما معهم من مسروقات أخذوها من المسلمين في العارض، ما داموا مكشوفين في الأرض الجرداء، لكنه أبى ذلك قائلا إنه قد منحهم الأمان حتى يصلوا ينبع، وأمر بحث السير نحو شقراء للوصول قبل أن يتصرف الخونة بما يسوله لهم الشيطان. فور وصول أخبار اقترابه من الوشم، ومعه جيش من راكبي الإبل والفرسان على الخيل المسومة، بعد أن أجلى الحامية التركية عن الرياض، توافد نحوه كبار أهل الوشم مرحبين ومبايعين وهم صاغرون، بعد أن ظلوا يناوئون أمراء آل سعود منذ شنق الإمام عبدالله قبل ست سنوات، ويساندون مندوبي الدولة العثمانية العظمى! ضد بني جلدتهم وأهل ملتهم، ويعاونوهم على نشر الفساد والطغيان في البلاد لقاء مناصب زائفة يتعالون بها على أهل الصلاح، وفتات من المال يظنون أنها ستجلب لهم الغنى، وإنما هي مكاوي لجباههم وجنوبهم يوم الحساب. أخذ قليل منهم يحلفون للأمير بالطلاق والعتاق أنهم ما فعلوا وما قالوا، وإنما بلغته عنهم وشايات كاذبة. لقد نسى أولئك الفجرة أن عناقر تميم هم أصهاره وأكثرهم من المحبين له، وهو يعرف الصالح من الطالح من المرتاب، لذلك أقام حد القصاص في قلة من الظاهر فسادهم،

وترك البقية حيث لا يعلم سريرتهم إلا خالقهم. ابتهج عدد من حاشية الأمير لمشاهدة الخونة أعوان البغاة صرعى، أما الجد فقد ساءه ذلك وتمنى لو كان العفو أسبق من العقوبة، وبخاصة في الساعة التي أعز الله فيها المسلمين بذلك النصر المبين. لما وصل بهلول وطغمته للوشم بعد سير وئيد، وجدوا حال مغاير حيث لم يطعمهم أحد، بل يبصق عليهم الرجال وتحث النسوة عليهم التراب، أما الصبية والخدم فيهزؤون من لباسهم ومظهرهم، لذا سارعوا بمغادرة الوشم بعد أن كسر الله أعوانهم الخونة. لما شاهد الجد البطش الذي حل على نفر من أهل الوشم، سارع بكتابة خطوط لأعيان الحريق يحثهم على المسارعة في القدوم نحو الأمير وتقديم واجب الولاء له، ورغم أن بلدتهم ليست على درب القوافل بين البحر والدرعية، بل هي في مكان منزوي ولم تطؤها أقدام الغزاة خلال السنوات الماضية، إلا أن الأمير يعرفها جيداً ولن يسره أن يشذ أهلها عن بقية أهل نجد، وبين لهم أن سقوط الرياض ونفي العايذي وجلاء بهلول، سيجعل زقم بن زامل في وضع حرج ولن يفيده وجود حامية تركية صغيرة في الدلم، لا تساندها أي قوة رديفة أخرى، وسيبحثون سريعاً عن مخرج من وسط جزيرة العرب، بعيداً عن ولاية ابن سعود، ونبه إلى وجوب أخذ العبرة مما جرى لبعض المتخاذلين في الوشم، منوها بعدم تكرار ما جرى في الدرعية حين بداء الباشا يدك أسوارها.

قام قادة الفرق بتوجيه المجاهدين إلى قرى الوشم ونواحيها، فأرسل البعض إلى أشيقر وآخرون إلى ثرمداء، أما ضرما فقد كانت موالية في معظم الوقت لآل محمد بن سعود، أما الجد علي فقد ظل في شقراء مع خُبرته. حضر بعض جلسات الأمير تركي، وفيها تجري المقالات حول ترتيب أعمال الفترة التالية، كما يتداول الحضور الرأي بشأن مجرى الأمور في الجوار، وكان العمال يجهزون عشاء لمرافقي الأمير من لحم الأبل والضأن، مع حبوب الحنطة المجروشة أو المطحونة ثم يعمل منها عجينة تخبز على هيئة أقراص مختلفة المقاسات، وفي بعض الأيام يطبخ مع التمن (الرز) أو مرقة معها خضروات لمن لديهم حِمية غذائية. يراقب الجد كبار الحضور وأقوالهم وأفعالهم وحركاتهم بدقة، محاولاً سبر غور كل منهم والتعرف على مضامينهم، وكان من بينهم رجال من سادة بلدات سدير والمحمل والوشم، ومن شيوخ العشائر في وسط بلاد العرب، من بينهم العسكر من المجمعة وابن جلاجل والماضي وسويد، وآخرون من العناقر والوهبة والغيهب والراشد، أكثرهم من تميم أو دواسر وعنوز وبني زيد، ومعهم رجال من مطير الموالون لابن سعود أحدهم يقال له "أبو شويربات" ورهط من آل معمر وآل كثير والعيدان والفوزان والمهيدب والدخيل والبواردي، وغيرهم من العمران والدغيثر والقصير والقضيب والشبانة والمدلج والخزيم. أما عشيرته من سبيع فغص بهم المكان، والأمير تركي يعرف أن غالبيتهم وفي معظم الأوقات، ليسوا من أهل الغدر والخيانة وتقلب الولاء. حضر لفيف من الحائر والدهو ضمنهم شعيفان وجفران ومجري وجفال و"فلاح" من العزة، وابن مجفل ورميزان وبوثنين والبرغش وقطنان والصييفي والعماني والمقحم والناجم، ومن سبعان الدرعية السويلم و"عجل"

من عنيزة، مع آخرين من بادية وحاضرة سبيع من الجبور والزكور والصملة والجمالين والنبطة والضعفة والمراغين والفراعين، وافتخر الجد بمشاهدة ولقاء عشيرته، كما سره لقاء مشايخ قبائل أخرى كريمة. وكان أكثر من لفت انتباهه في ذلك الجمع رجلان، أولهما حمد بن مبارك الذي يعتز بلقب "بطاح" وقد تولى رئاسة حريملاء مؤخراً بعد أن بطش بجماعته، في مقتلة كريهة لم يشر الجد إلى وقائعها لأنه لم يحضرها. والرجل الثاني ذو طول فارع ونظرات حادة، ووجه عابس مخيف فيه شوارب كثة منتصبة للأعلى، قليل الكلام والاشارة والتبسم، هو احمد السديري من بدارين الدواسر في اللدام، ثم جاءوا إلى سدير (والزلفي) وبعد ذلك تولى السلطة في الغاط {لغاط كما في شعر الجاهلية ثم الحطيئة في قصيدة عمر وأفراخ مرخ!} بعد نزاع مع آل حمد وراشد، وكان صمته وسمته يجعل مكانته تسمو على أغلب الجالسين، وربما أنه من أسلاف أحمد السديري جد الملك فهد (بعد مائة سنة) رحم الله الجميع. كان الجد يتطلع في تلك الوجوه المختلفة الأشراب، لكنها تلتئم في ثلاث فئات متباينة، الأولى الطيبون الصالحون السابقون للجهاد في سبيل دحر أعداء التوحيد، والثانية المذبذبون بين الفلاح والخيبة، ففي ساعات ينضمون للصالحين وفي أخرى يرون مصالحهم في غير ذلك، أما الثالثة فهم ذوي الوجوه الكالحة من النفاق، يظهرون الصلاح لكنهم سرعان ما ينقلبون إذا واتتهم الفرصة للنيل من أهل الديار، ويساعدون أعداء التوحيد لتحقيق مكاسب مالية، أو الحصول على مناصب السلطة يبغون العلو والفساد. الله وحده يعلم ما تخفي الصدور وخائنة الأعين، ومع قدر من المعرفة ينكشفون من "لحن القول" والمراوغة. لقد بدا الأمير تركي في حال أفضل مما سبق أن رآه الجد، فقبل ثمان سنوات في ضرمى كان مرتبكاً بعد وفاة والده في حالة غامضة ومفاجئة، بينما يصدر الإمام عبدالله وإخوته أوامر متناقضة، في ساعة اقتراب إبراهيم باشا من صعود طويق، زاحفاً بجحافل قواته نحو الدرعية. وبعد الاستسلام ثم تولي المعمر وولده الحكم في العارض زاد الغموض، وبعد اضطراره للفرار من "كيخيا" الترك (نائب الحاكم) بقي في مخبأه ينتظر في قلق ووجل ما تأتي به الأيام. ثم أظهر قدر جم من الفطنة والشجاعة، وتمكن خلال شهور من اكتساب ولاء أهل سدير والمحمل والوشم والقصيم، وثقتهم أنه الرجل الوحيد القادر بعون الله أن ينقذ الناس من خطر العدو الأجنبي الفاسق، ويوقف فتنة الاقتتال بين أهل البلاد ضد بعضهم البعض. وها هو الان قد تحصل على ولاء كافة القوم في وسط جزيرة العرب، ورتب مغادرة عساكر الترك من الديار النجدية، ولابد أنه يشعر بالطموح لإكمال استرداد عزة وكرامة أهله ووطنه، لكنه بحاجة لانتقاء رجال لديهم الرغبة الصادقة والقدرة الفاعلة لمعاونته في تحقيق ما يصبو إليه. في جلسته مع قرابته قال الجد إن من العبر ما حدث في الخمس سنوات السالفة، بعد أن شُنق إمام البلاد، وأصبح لا والي سوى العدو اللئيم فثارت الفتن، وغدا كل "ذباح وسفاح ونطاح" يدعي لنفسه الولاية، ويبدأ بقتل قرابته وجيرانه ثم ينتقل لكل من لا يواليه، يسلب ماله ويضرب ظهره ويهتك عرضه ويسفك دمه، وكل هذا ليفوز بمنصب السلطة ليزداد غنى وعلو. وبعض هذه الوجوه الكالحة

كانوا يقاتلون من يظنون أنه يوالي آل سعود، واليوم هاهم يبطشون بمن يظنون أنه لا يواليهم، وهذا "القتل على الموالاة" من أبشع الجرائم التي نهى عنها الله ورسوله "لا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا" وياليت هؤلاء الطامعين يعرفون أن أقصى ما يبلغوه أن يكونوا "عمال مأمورين" يُستغنى عن خدماتهم بجرة قلم! فلماذا الخوض في الفتن والدماء؟ فرد عليه أحدهم إن الشيطان يزين لهم الباطل، وحبذا لو استعانوا بخالقهم ورازقهم، وعملوا في رعيهم وزراعتهم وتجارتهم وصناعتهم، ليكسبوا المال الحلال ويعيشوا في هناء مع أهلهم وجيرانهم، ويفوزوا بخير الدنيا والآخرة. واليوم يا أحبتي أحذر نفسي ثم أنتم من الانسياق خلف مروجي الفتن، الذين أفسدوا بلادهم بدعوى أنهم السلف الصالح وأهل التوحيد، أو من سموا نفسهم "حزب الله هم الغالبون" أو من قالوا إنهم مثل حواريو المسيح "أنصار الله" وهم مجرد روافض الحوثية المفسدون في اليمن أو غيرهم في الشام ومصر.

ظل الجد عدة ليال يتفكر في أحوال البلاد، يسأل الله أن يقيض لها محبي الخير من ذوي "الفكر والهمة الرشيدة" ويشعر بالقلق لتأخر عودة مرسوله للحريق، ويتمنى أن يسارع أهل بلدته بالحضور عند ولي الأمر طائعين، وينبذوا صنيعة الترك في الدلم. بعد أيام وصل ركاب عظيم فيه جمهرة من أهل القصيم، بعضهم من سبعان عنيزة والبكيرية، مثل السليم والزامل والجمل والجمعي والفضل، وآخرون من عنوز بريدة (المهنا) وبسام الدواسر. بايعوا جميعاً الأمير على الولاء وعاهدوه على الطاعة، وأولم لهم مائدة كبيرة حافلة بأنواع الطعام حسب ما بلغهم، حيث لم يحضرها الخثالين لوجودهم بعيداً في لقاء مع فئة من سبعان الحائر والأفلاج ورماح، تباحثوا فيه حالهم فيما إذا قرر الأمير غزو الجنوب، ليدحر زقم ومن تبقى لديه من جنود الترك. بعدها عاد رجل من الحريق بنبأ سار، عن توجه مندوبين من معظم أسر البلدة نحو الوشم، لتقديم فروض الولاء والانصياع لولي الأمر الجديد تركي بن عبدالله، وقد حثهم على ذلك أن "زقم" قد غادر الدلم، فور أن ورد إليه نباء استسلام الرياض، ومغادرة العايذي وبهلول بعيدا. أثناء تداولهم بشأن ما قد تؤول إليه الأمور، بعد أن يبسط الأمير نفوذه على كافة أرجاء العارض، وتخوف البعض من أن قلة ممن يجالسونه الآن، تبدو على محياهم علائم الغدر والخيانة، ولا يؤمن مكرهم حتى يستمروا في السلطة على بلداتهم بدون الرجوع لوالي الدرعية، وقال آخر لقد خسرنا نحو عشرين ألف شهيد، في الحرب ضد الباشا الكبير وولديه (طوسون وإبراهيم) فكم يا هل ترى سنفقد من الضحايا؟ لو عادت فتنة الأعوام الخمسة للاشتعال ثانية، وانشق البعض على حكم الأمير مفضلين الاستقلال برأيهم، على أن يكونوا أتباع لأحد من آل سعود. وأردف آخر بأنه سمع أحد أولئك يشيد بولاية الترك على البلاد، بدلا من غلمان الدرعية السفهاء الذين جروا علينا تلك المحنة، خلال العشر سنوات الماضية، ولو أطاعوا رأي الحكماء لتولى زمام الأمور رجل التدبير، عبدالله ابن الإمام المؤسس (محمد بن سعود) والد تركي، فور وفاة أبوشوارب بدلا من ولده الضعيف الذي انتهى معلقاً في المشنقة بعد أن نكب البلاد

بسوء سياسته. قال آخر لا يتسلل القنوط في أنفسكم، فبعون الله وبحسن تدبير الأمير تركي، واذا بقيت سبيع معه والعجمان ويام (بعضهم مكرمية!) فلن تستطيع أي بلدة من شمال القصيم وحتى جنوب اللدام (السليل) أن تقف ضده، فما هي إلا قرى متباعدة يتقاتل أهلها فيما بينهم ومع البلدات المجاورة، ولن يتسنى لأحد منهم العصيان إلا إذا اهتزت قوة الأمير، وانفرط عقد السلطة من يده كما حدث لابن معمر. وطمأنهم آخر بأن الأمير تركي لم يحسن القتال فقط، بل أجاد العمل فإن إدارة الحكم تشبه "سياسة" العساف للخيل أو شعرة معاوية، وقد أحسن الأمير التفكير والتدبير خلال الثلاث سنوات الماضية، ولا أظن أن مغادرة بهلول الرياض ومعه مئات العساكر، هي من شجاعته فحسب بل تبدو أنها من مفاهمة معهم على شروط معينة، ريثما يتمكن من بسط نفوذه وإحكام السيطرة بقوة على البلاد، وأيده آخر بأن الترك ممسكون الآن بعشرات من إخوة الإمام سعود وبنيه وحفدته، وهذا ما يجعلهم يأمنون جانبه حتى حين، فقد ثبت لديهم صحة قول أن "الجنود في نجد الواسعة اذا قلوا ضاعوا واذا كثروا جاعوا" لذلك فما من بد من الاستعانة بحاكم من أهلها ذو فطنة ومهارة وإخلاص للسلطان. وقد جربوا في السنوات الماضية رجال من آل عايذ ومن العناقر ومن الدوشان وغيرهم، فلم يجدوا أحد يقارب في قدرته بعض من ذرية ابن سعود (الإمام محمد المؤسس) وليس غير الأمير تركي الآن. قال رجل وهو يحاور صحبه في تلك الجلسة العاصفة، إن قبول الأمير بالحكم على شروط الخليفة، وبوجود حامية تركية ترفع الراية العثمانية، وتراقب التزام الجميع بفرمانات السلطان في إسطنبول، يبدو المخرج الوحيد لهم وهو يقدر على كبح جماح قادة العشائر، ورؤساء البلدات وضمان انصياعهم للنظام السلطاني، وكف يدهم عن التعرض لسبل الحج والتجارة. أما الجد علي فقد اكتفى بالاستماع لذلك الجدال المستعر، داعيا الله أن يقيض للبلاد الأمر الرشيد ويجنبها الفتن، ويبعد الاقتتال بين أهلها أو مع الغزاة الأجانب.

بعد أيام كانوا في مجلس الأمير ورغم أنهم اتفقوا على عدم لياقة الاعتذار منه لعدم حضور الوليمة، لأنها لم تكن خاصة لهم والرجل مشغول بأمور أكبر من إحصاء الغائب والحاضر لموائده، لكن أحدهم بادر بمحادثة الأمير في ذلك وبدا منه عدم الاكتراث، ولم يتحدث عن الأمر غير اللائق. لكن الكلمة جرت عليهم تعليق من أحد المتنطعين، بالقول للأمير إن القوم (يقصد أهل الفُرع) مازال في رؤوسهم الشر، فحتى الآن مازالوا يتربصون الوقيعة بكم، ويوالون رجال الترك ويعاونوهم بالركائب والزاد. عندها غضب الجد وقال إن أهل الحريق قد وصلوا الوشم في طريقهم لمبايعتكم، وسوف يكفونكم مؤونة القضاء على الزمرة الباقية في الجنوب (اليمامة) بعون الله تعالى، فبدا السرور على محيا الأمير وصرف الحديث نحو شئون أخرى. وصلت قافلة من الحريق بها الطائفة الأولى من المبايعين، وكان في معيتهم جد والدي "عبدالله بن علي" الذي لم يكد يبلغ العشرين سنة، ثم توالت بعدهم عدة جماعات يظهرون الولاء والطاعة، واستبشر الجد بالجميع دالعياًالله أن يصلح "النية والعمل" كما أظهر الأمير

تركي سروره بتوافد المزيد من سبعان الفُرع وجيرانهم. لما بداء "بدر شعبان" يتناقص حادث بعضهم الأمير حول المبادرة بالقضاء على نفوذ زقم وسادته من الترك، فجهزهم وجعل قيادتهم في أربعة من آل عفيصان، أكبرهم رجل ذو ورع وشجاعة اسمه عمر وأرفق معهم طائفة من القصيم والوشم وسدير، ونبه أهل جنوب اليمامة بعدم التعرض لأحد من جيرانهم، وأكد على العفيصان ضمان سلامة عسكر الترك، وجلبهم إليه مع الأمير زقم بن زامل. كانت العيون والطلائع تدعي أن زقم اختباء في بيوت بمنطقة قاحالة غرب قرية اليمامة وجنوب شرق نعجان، التي يوجد بها سكان من الخوالد موالين لحاكم الأحساء، المعين من متصرف الدولة العثمانية، لكنها لما اقتربوا منها وردهم نبأ رحيلهم عائدين إلى عاصمتهم (الدلم) فتوجهوا مسرعين إلى هناك وحاصروهم. جرت مناوشات وتبادل الرماية بين الطرفين، لكن أهالي الدلم ثاروا على العدو، ثم بداء عصيان عام حتى من القرابة والقحاطين. كان الجد في قلق لاقتراب شهر الصوم، ويود قيامه في بيته وعند أهله، ومن لطف الله أن الأمر لم يستطل، وقرر العساكر وزقم التسليم، شريطة ضمان سلامة أرواحهم وسلاحهم ومالهم ودوابهم، فوافقهم العفيصان على ذلك على أن يصحبوا ركائبهم فقط أما بقية الدواب فقبضها. وصلهم أنباء غير مؤكدة عن توجه الأمير تركي إلى سدير، لذا سارع بعض أهله لإفادة القائد بعدم ارتياحهم لهواء وماء الخرج، واستأذنوا للمغادرة واللحاق بأهلهم، ثم قرر الرجل أن يغادر مع الأسرى إلى منفوحة، فعاد الجد علي وولده للحريق.

بعد العيد بلغتهم في الحريق إشارة لالتحاق المجاهدين بقائدهم في الدلم، فانطلق الجد برفقة لفيف من آل خثلان إلى هناك، والتقوا مع أحد أفراد أسرة العفيصان، الذي تولى رئاسة جنوب اليمامة من الحائر حتى اللدام. وكان في القصر جموع من كافة البلدات، فتحدث معهم في أحوال مناطق كل منهم، لكن ما كدر عليهم هو رغبته إرسال عماله لخرص (تقدير) الثمار وتحديد مقدار الزكاة على التمر والحب والشعير والذرة وبهيمة الانعام، فاحتد البعض قائلين إنهم قد سلموا كافة ما عليهم إلى زقم قبل شهور، وعلى عماله مراجعة مدوناتهم والقدوم في السنة التالية، لكنه رد بجفاء أن هذه أوامر الإمام وعليهم الامتثال. لم يتحدث الجد قط لعدة أسباب أولها أنه يعرف الرجل في الفترة السابقة زلا يريد مجادلته في لحظة كدره، كما أن الحضور قد كفوه مؤونة المهاترة، والأمر الثالث أنه قد اندهش لسماعه يلقبه بالإمام، وكانت تلك أول مرة يسمعها، فقد كان طيلة السنوات الخمس الماضية يلقب بالأمير تركي بن عبد الله وليس الإمام. غضب الرجل ورد على البعض بفاحش القول، وهدد وتوعد بالنكال على من يعصى ولي الأمر، وتبين أنه يتعامل بقسوة وبطش وجبروت، وهي ملائمة مع العدو المقاتل وليس مع المجاهدين في مساندة ولي الأمر. بعد ذلك دعاهم للعشاء معه على طعام مبسط ويسير، أكل منه الجد وقليل من الحضور أما البقية فأعرضوا عنه ساخطين، في صبيحة اليوم التالي بعد انصراف الكثير انفرد الجد مع العفيصان، وهنأه على توليه مقاليد حكم الجنوب، وأشاد بما قام به من إنجازات في محاربة الأعداء، وتمنى له النجاح في مهمته

الجديدة في التعامل مع أصدقاء ولي الأمر وبالطريقة المحببة غير المنفرة. رد عليه بأن تعليمات الإمام له بجلب أموال لإصلاح مباني الدرعية، لتعود عاصمة الديار، كما أن عليه نفقات أخرى يود سدادها عاجلا، وشكك في ادعاء البعض أنهم قد أدوا الزكاة الشرعية لابن زامل الذي لم يعد حاضرا. أكد له الجد أن زقم كان لا يتوانى عن سرعة تحصيل ما على الناس، لكنه يتجنب الإثقال عليهم أو المساس بكرائم أموالهم، ومع ذلك فقد حاربوه معكم لأنه يساعد الترك، فقال له القائد إنه يثق في كلامه ولكن ولي الأمر يريد هذا، ثم خط بيده مكتوب لعمال الزكاة لطرح الثلث عنه، فرفض الجد ذلك لأن دربه هو ما عليه أهل بلدته وقرابته وجيرانه. خاب أمل الجد في أحد رجال أرومة العفيصان، الذين وجد معظمهم ذوي اخلاص وشجاعة في محاربة العدو الباغي، لكن التصرف مع الأهالي في شئون حياتهم اليومية يختلف. انتهز الجد وقت الهدوء في اليمامة، واستتباب الأمن لقوافل التجارة مع البحر الشرقي، بجهود فعالة من عريعر الأحساء وعفيصان الدلم، وسافر في رحلة قصيرة لكنها مفيدة ومربحة، حيث جلب لمحله بضاعة مزجاة تمكن عماله من تصريفها سريعاً، كما التقى اثناءها مع "رحمة الدمام" ذو الشخصية النبيلة رغم علاته.

في مطلع العام التالي كانت الأمور ساكنة في الحريق، والعفيصان يعمل جاهداً للسيطرة على كافة الأحوال الأمنية في جنوب اليمامة، ويكبح جماح كل من تسول له نفسه المساس بالسكينة، مع ما تعانيه بقية مناطق نجد من انفلات أمني، وتنازع على السلطة وخلافات في بعض القرى، تتطور أحيانا إلى اشتباك دموي وأعمال تهز هيبة الحاكم. ثم وردت دعوة للجد وبعض أعيان بلدته، للتوجه مع رئيس جنوب اليمامة للقاء الأمير تركي في منفوحة، لكن بعضهم وبخاصة ذوي الأملاك والثراء تثاقلوا، حيث شاعت أقاويل في الحريق، أن الأمير تركي يزمع ترميم بعض قصور الدرعية لتعود عاصمة للديار، ولربما يكلف البعض بالمشاركة في ذلك. اصطحب الجد معه اثنان من أبنائه وخمسة من العاملين عنده، ولما وصلوا منفوحة قيل لهم إن الأمير في معكال، لكن أحد سبعان البلدة (سعدون) قال لهم أن الأولى التريث عندهم، حيث تجهيزات الإقامة هناك لم تكتمل بعد، وأوصى أن يغادروا سوياً بعد أيام. في اليوم التالي أقام مائدة حافلة بالطعام، شارك فيها بعض سبعان البلدة الكرام، كما حضر بعض من أعيان الحريق من غير سبيع، ولما تسامروا نبه أحدهم إلى عزم بعض أعوان الأمير أن يعرضوا على القوم المساهمة في ترميم بعض مباني الدرعية، لكي تكون مقرات لإدارة البلاد من هناك، ومنها أملاك بعض الأمراء الذين استشهدوا في الحرب ضد الباشا، وكذلك منشآت تابعة للأمارة شيدت زمن الإمام سعود وولده عبدالله، وستكون تلك الإماكن ملك لمن يرممها ويتقاضي عليها إيجار. اعترض أحد الحضور لأن على كل أمير أن يدبر عمارة ما يلزمه من مباني، وقال آخر أن الشهداء أصحاب تلك المنازل لهم ورثة، وقد يطالبون لاحقاً بملك قرابتهم بعد ترميمه، واستطال الجدال لكن سعدون أنهاه باقتراح عدم التعجل في الرفض، وأبدى مسألتين الأولى في وجود آخرون

سيكفونهم مؤونة رفض المشاركة، فرد آخر أنه اذا حضر أحد من الوشم فلا شك أنه سيأبى الدفع، بخاصة أهل أشيقر الذين يعرفون كيف تُصنع الثروة ويُحافظ عليها. لم يكترث سعدون لقوله واستأنف كلامه، فقال إن الثانية هي في حال عدم اعتراض أحد فليس من اللائق أن ينفردوا بالرفض ويشذوا عن الجماعة، وبإمكان من يريد التنصل أن يتعذر برغبته في بحث الأمر مع قرابته قبل أن يتخذ قراره. لما وصلوا جنوب معكال وجدوا مخيم واسع وبه تجهيزات كاملة، لكن الجد استاء من ملامح الإعياء والكدر، البادية على وجه الأمير وحركات أطرافه، وبدا أن القلاقل التي ما زالت تثور، بين آونة وأخرى في بعض مناطق نفوذه، واستمرار حالات من قطع الطرق وسلب المارة، كلها تؤثر على مكانته كحاكم همام يسيطر على أراضي وأهالي ولايته. تحدث أحد أعوانه عن مسألة الترميم لإحياء الدرعية، وصمت الجميع ولم يعترض أحد، لكن لم يبادر أحد بالرفض المباشر، فوجد الجد لحظة الصمت ملائمة لعرض ما لديه، فأشاد بما وهب الله الأمير من حكمة وحسن تدبير، وأن الجميع لن يخرج عن رأيه سائلين الله الهداية، ثم أردف ببيان الحاجة لمشاهدة المكان، ومعرفة ما سيتطلبه الترميم والإصلاح. سارع الأمير بتوجيه أحد رجاله لإعداد طعام الغداة في اليوم التالي في الدرعية، واقترح أن يغادروا قبل طلوع الشمس، حيث يلزمهم نحو خمس ساعات للوصول إلى هناك.

لما اقتربوا من المكان بداء بعض الركاب يتلطمون، لسد أنوفهم عن الروائح الكريهة التي فاحت عليهم، وتزايد الأمر سوء لما دخلوا أسفل البجيري ثم صعدوا نحو سمحان، وانزعج الجد لرؤية مدى الدمار الذي لحق بالعاصمة، فعندما غادرها قبل سنوات كانت بعض المباني والأسوار محطمة، وبلغه أن إبراهيم باشا قد أمضى فيها عدة أشهرب يخرب ويفسد البلاد ويقتل الناس، لكنه لم يتخيل أن الوضع قد تدهور إلى تلك الحال، فقد تلفت البساتين وردمت الآبار وتهدمت كثير من البنايات. أشار له أحد الصحب من أهل عرقة، الذين كانوا معه في آخر نظرة عاجلة، القاها على جنوب الدرعية قبل سنتين، أن زمن سكن ابن معمر فيها ثم إمارة مشاري، قد أحدثت بعض الدمار الذي تزايد بعد هجمات حسين بيه وعبوش أغا. لاحظ أن بعض الأهالي الذين قطنوا البلدة بعد رحيل آل مقرن عنها، قد رحلوا ولم يعد هناك سوى قلة تنبش أراضي الدور الواسعة، بحثاً عن أشياء ثمينة أخفاها القوم في قدور يحفر لها تحت الأرض، وتهيم دوابهم وكلابهم في السكك المقفلة بالردم، باحثة عن طعام يسد جوعهم في تلك القرية التي كانت تنعم برخاء، لم يعهد له شبيه في وسط جزيرة العرب. جاء رجل للأمير ينصح بمغادرة المكان حيث ادعى أن شاهد بعض الضواري تنهش جثة من تحت الأنقاض، وقال آخر إن المكان موبوء بالطاعون ولا ينصح بالمكوث فيه لحظة واحدة، ثم اتسعت مثل تلك الأقاويل من المرجفين. لكن الأمير أعرض عنهم وتوجه صاعداً نحو قصور الطريف، التي كان معظمها مصاب بقذائف المدفعية وغيرها انهدم كلياً، وقلة باقية على حالها يشمخ منها قصر حديث ذو بناء متين، شيده الإمام عبدالله في آخر

أيامه، على طراز حديث لتسكنه والدة أكبر أبنائه. ومعذلك غعند طوافهم في سكك الطريف كانت الأحزان تطغى على الفكر، لما أصاب تلك البلدة العامرة التي أتاها أمر الله فغدت أطلالاً خربة. لما أقبلوا على المرتفع الواقع شمال شعيب "شُميس" قال أحدهم هذه والله الأرض الصالحة لتكون قاعدة إمارتكم، فهي أرض منبسطة فسيحة بين وادي الوتر والشعيب، وجنوبها "دِخنة" وفي الغرب "صياح" وفي قلبها بقعة صخرية مرتفعة قليلا "الصفاة" يسهل الدفاع عنها والهروب منها عند الاقتضاء، وليست مثل القرى الست للدرعية المتناثرة في أرجاء وادي حنيفة، تحيطها مرتفعات يليها سهول حجرية، يصعب اقتحامها لكن يسهل اطباق الحصار عليها، وهذا حصن دهام شرقها على ضفة الوادي يصلح لإقامة مهاجع لمئات الجنود. فأجابه الأمير أن البعض قد أوصوه بذلك سابقاً لكنه لما كان أميرها قبل أربع سنوات، وجد نفسه تعافها لما تتضمنه من ذكريات حرب الدرعية مع الرياض، التي استمرت ربع قرن ولم تطب له الإقامة فيها. لكن آخرين راودتهم فكرة إنشاء ضاحية صغيرة غرب الرياض القديمة، تحوي أربعة مباني كبيرة فقط، أولها جامع كبير وقصر ينزله الأمير وأهله، وثالثها ديوان واسع يلتقي فيه الزوار ويباشر فيه أعمال الحكم ثم ثكنة لسكن جنوده وحرسه، ويبنى عليها سور يحيطها كالسوار حول المعصم. وتحدث بعض أهل الوشم عن الضيق والكدر من سكن الدرعية، حيث قتل الباشا القرابة والصحب، كما أن نفقات ترميم وإصلاح بعض بناياتها تفوق كثيراً انشاء مباني جديدة بترتيب أفضل، وأيد غالبية الحضور ذلك وبعضهم يخشى المساهمة في تكاليف باهظة. تطلع الجد علي في وجه الأمير الذي لم يبدو مسروراً من مرئيات أعيان البلاد، وقد بدت عليه ملامح الاكتئاب الذي عزاه الجد لما مر عليه في السبع سنوات الماضية، كما أن الاضطراب في بعض المناطق يثير الحنق، والناس تنشد السكون والرخاء، لكن أهل الشر والطمع يأبون إلا خلاف ذلك. لاحظ الجد أن الأمير قد بدت عليه ملامح الشيخوخة، فرغم أنه لم يبلغ الستين بعد فقد بدا كما لو أنه تخطاها بعدة سنوات، ومع هذا فقد كان الحزم والحدة بادية في تصرفاته، ولا يتساهل مع من يثير الشغب والنزاع بين الأهالي، ويتعامل بقسوة ويبطش بكل مخالف للحق كائناً من كان. لما تسامروا ليلا أفضى لهم الأمير تركي بشوقه للقاء بعض الأحبة، وعلى رأسهم ولده فيصل ثم ابن أخته الأمير مشاري بن عبد الرحمن ثم الشيخ عبدالرحمن بن حسن حفيد ابن عبدالوهاب، وكلهم أسرى عند الباشا في مصر. راجعه بعض بنو عمه في مسألة سرعة المباشرة في بناء مقر للأمارة، غرب قلعة دهام القديمة فوعد بالشخوص مع الجميع إلى هناك صباح الغد، ثم تبرع أحد أعيان المحمل باقتراح دعوة الناس للمبايعة بالإمامة، واقترح البعض الإعراض عن ذلك ويكتفى بالبيعة له بالإمارة، وأيده آخر بأن الإمامة هي قيادة شعائر الدين، أما الإمارة فقيادة أمور الدنيا نحو الصلاح، وقال ثالث لو أن إمام صلاة المغرب قال لرابعة، ونبهوه بعد أن انتصب واقفا فلم يشاء قطع الركعة وأتمها رغم تكرار التنبيه فصلاته باطلة يلزم اعادتها، أما الأمير فهو صاحب الأمر النافذ الذي لا يراد إلا بأمره، ودخل السجال مُجالس فقال لكن الأمير لا يعزم أمر إلا بعد مشاورة وموافقة صحابته.

وكثر القول حول ذلك حتى أشار أحدهم أن ابن خثلان صامت فماذا لديه؟ فرد بقوله إني لا أتكلم بإذن الأمير فلما أشار له قال الكثير يتأففون من لقب "الملك" لما ورد على لسان "ملكة سباء" بأن الملوك إذا دخول قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وهي تقصد الدخول عنوة مع انتقام، وفي كتاب الله أن الملك هو "قائد الحرب" وغيرها من أعمال الدنيا (مثل شرب الماء) وقد البعض لنبي لهم ابعث لنا ملك نقاتل في سبيل الله، ثم أجابهم أن الله بعث لهم طالوت ملكاً، وادعوا أنهم أحق بالملك منه، كما من الله على خلقه أن جعل منهم أنبياء وملوك، لذلك فلا حرج في أن يبايع الصالح ليكون ملك قائد. ثم أردف بالقول لهم إن الأهم من المسمى هو النهج الذي يسير عليه القائد، وما نصت عليه الشريعة هو الحكم بالعدل والإحسان والمعروف، وتجنب الفحشاء والمنكر والبغي ، فمن سار عليها فهو الجدير بالمنصب. قال رجل ماكر للأمير ربما أن "أبو عمر" يقصد ما شاع عن آل مقرن أنهم "أهل العوجاء" أي تحكمون بكلمات تقبل تأويلات معتدلة أو عوجاء على الهوى، فسارع الجد بالرد غاضباً أنه يأبى أن يضع أحد في فيه ما لم يقله، فأشار الأمير بيمناه قائلا على رسلكم جميعاً وسننظر في الأمر لاحقا، وفي الصباح نشخص "للصفاة" لنرى ما يصلح ليكون قاعدة مؤقتة للبلاد.

بعد الضحى ارتحل رِكابُهم شمالا نحو دخنة، فوجدوا عمال الأمير قد أعدوا طعام الغداة، عند مسجد صغير جواره بيوت قليلة وبستان عامر، يقال أنه كان لأحد أبناء الشيخ محمد الأسير في مصر، وعلى مقربة منهم (حذفة حصاة) وجدوا أرض فسيحة تتوسطها بقعة صخرية مستوية، وهناك تقاول الأمير مع مرافقيه حول تشييد مباني القاعدة الجديدة (المؤقتة) لحكمه الوليد، حيث انعقد العزم على أن تكون الصفاة مركز البلدة، ويوجد في الشمال الغربي مكان يبعد خطوات عن الشعيب، ولما صلوا فيه العصر تقرر أن يكون موضع الجامع، ويبعد عنه (جنوبا) بنحو ثلاثمائة ذراع بقعة منخفضة يقام فيها منزل كبير لسكن الإمام تركي وأهله، وعلى بعد ثلاثين ذراع منه شرقا يقام قصر الحكم حيث الديوان ومقر العاملين في سجلات العمل ومجلس الزوار. وبذلك ظهرت ساحة فسيحة تمتد من الشرق للغرب نحو سبعمائة ذراع، رأى الغالبية أن تكون "مربد" بها مناخ وسوق مشرعة، يحدها شمالا (شرق الجامع) محلات ودكاكين مبنية من الحجر والطين، وأسقفها من الخشب والحصير والجص، تعرض فيها البضائع ولوازم المعيشة اليومية. واقترح البعض أن تقام بناية ليقطنها مرافقو (أخوياء) وعمال وحرس الأمير، على أن يرابط الجنود والمجاهدون خارج سور البلدة، فيما تبقى من قلعة دهام على الضفة الغربية لوادي الوتر. عند المساء اختصر الجد مع الأمير برفقة ولده عبدالله واستأذنه أن يرحل للحريق، وقال له إن ولدي قد سماه جده على اسم والدك رحم الله الجميع، حيث جاء بلدتنا قبل سنين وكان على علاقة مودة مع أسرتنا هناك، وسيعود اليكم قريبا بعونه تعالى، يرافقه أستاذ يحسن إقامة الاساسات الحجرية للمباني، وبناء لتشييد الحوائط السميكة وسقاف يجيد ترتيب الأسقف ويعمل لكل جزء ميزاب يصرف المياه من الأسطح بانتظام، ومعهم كافة الأدوات والمعدات

اللازمة ونفر من عمال المعاونة. لكن الأمير أبى وأشار عليه أن يبقى عنده فله لزوم فيه، وأنه يزمع تكليفه للقيام بأعمال في الوشم أو القصيم، فاعتذر منه أن لديه أمور في بلدته تستدعي ذهابه، ولما استفسر منه عن ذلك قال ربي ثم أهلي وجيراني، وأنظر للضرع والزرع والبيع، فتبسم الأمير قائلا هذه أمور يقوم بها أبنائك وعمالك، وإنما نريدك في شئون كبرى لا يقوم بها إلا ذو القوة والأمانة، فقبل الجد جبينه وقال استحلفك بالله أن تعفيني، فإني إن أرضيت الخالق غضب مني الخلق، وأنأ أود أن أكون مجاهداً في سبيل الله تحت رايتك، أعمل لتكون كلمة الله عليا وأقاتل معكم لإجلاء أهل البدع والفساد عن ديارنا، ووهبني سبحانه ما يكفيني لأعيش في هناء أرّضي الخالق والمخلوقين بعيداً عن الحزازات الآثمة، وسأكون رهن الإشارة اذا جد الجد رعاكم الله، وأعمالي تلك ليس فيها انتقاص فسبحانه قال أن ليس علينا جناح أن نبتغي الفضل منه حتى أثناء المناسك، وهي تجلب رضاه وسرور الدنيا والآخرة والعون على الجهاد والغنى عن الخلق. استفسر منه الأمير عما إذا كان قد تاجر مع أهل القطيف (الدمام) ولما أجابه سأل عن "رحمة" وما إذا قد التقاه؟ فبين له ما لاحظه عليه من حب ظاهري للتوحيد وبعض أمور أخرى مشتبهة، فقال إنه يكاتبنا عن خصومته مع بعض بني خالد، وعلاقته مع البحارنة وآل خليفة والعذبية، فأشار عليه الجد أن يعطي الأولوية حالياً لما في نجد من ضغائن وسفك دماء، وأن يؤجل النظر نحو المشارقة لوقت لاحق، حتى لا تتبعج عليه الأمور هنا.

في ليلة الرحيل تسامر الجد مع بعض الصحب، فتحدث أحد أهل سدير عن أحوال الأمير وتركهم إياه عند آل مزروع (خواله) في منفوحة، يحيط به الأعداء من أعوان الترك، وعد ذلك من التخاذل في نصرة ولي الأمر. قال أحد القحاطين إن عدوه ليس الترك فقد نصح بعض قومي بهلول ألا يغادر الرياض، لكنه أوضح لهم أن الأوامر جاءته بتسليمها والرحيل. ثم أردف سبيعي بقوله إنهم دعوا الأمير ليساندهم في العتش (الحفر) لما تعدى عليهم أعراب من عنزة ومطير بدعم من خوالد الأحساء، لكنه أبى لأن لا علاقة له بالشرق، مما يؤشر على أنه على اتفاق مع الترك ليحكم وسط البلاد والشريف غربها والعريعر شرقها. ثم تدخل آخر مؤكدا أن أعداء تركي ليسوا العثمانية بل من العرب، رفض آخر قوله وأكد أن أعداء الأمير آنذاك أربعة، أولهم الترك ثم المغرضين يليهم المتدينة وآخرهم الخدم، وعليه الحذر من هذه الفئات الفاسدة، ووجودنا معه لن يفيده ما لم يفطن لحاله. الحوا على الجد أن يدلي بدلوه في المحاورة، فقال أول من ذكر أخي الترك، ولا أحد منا يجهل ما قاموا به ضدنا من طغيان، خلال عشر سنوات منذ وصل طوسون إلى الحناكية، ولا أظن أن شرهم قد انقضى، بل ربما يعدون لجولة ثانية. أما آخر من ذكر فهم الخدم وسأحدثكم بقليل مما رأيته منهم، والاثنان الآخران (المغرضون والمتدينة) فلم أفهم ما يعنيه بهم، وقد سأني أن بعض عمال الأمير يوغرون صدره ضد المخلصين، وسمعت أحدهم ينقل له نميمة يرجح عندي كذبها، ضد أحد المخلصين بصدق معه، ولا أدري إن كان ذلك عن جهالة فيه أو رغبة في

المكيدة، أو ان أحد المبغضين رشاه ليتكلم بالإفك؟ وإني أتمنى لو كان حول الأمير بعض من قرابته من ذرية جده محمد، حتى يعينوه على سبر أحوال الحاشية والمرافقين. ثم عادوا لسؤال مجالسهم عن قصده من عداوة "المغرضين" فقال إن حول الأمير رجال من زعماء القبائل (أو غيرهم) ممن لديهم مطامع شريرة للوصول إلى سدة الرئاسة، سواء في قراهم أو على عشائرهم، وهم يتصرفون بما يرونه يحقق غرضهم الرخيص حتى وإن كان فيه إساءة للإمام، ويطمحون لتحقيق كل ما يوصلهم للعلو، بغض النظر عما إذا فيه مصلحة البلاد والعباد أو خلافه. أيد ذلك أحد الحضور فقال إنه شاهد المخازي من بعضهم، فمنهم من لا يتورع عن طلب المناصب العليا، متذرعاً بقول النبي يوسف (عليه السلام) لملك مصر اجعلني على خزائن الأرض، فرد عليه أحدهم بل سمعت أحد الأرذلين يعرض على أمير إحدى بناته الجميلات، ليتزوجها هو أو أحد أولاده، فقال آخر أنه شاهد ما هو أخزى من ذلك، عندما قال للأمير أنت من بنو عمومتنا ومن عشيرتنا، ولما رد عليه بجفاء أنه من قبيلة أخرى جاءه بعد أيام بادعاء أنه من قبيلة الأمير، فتضجر منه بالقول إن كل الناس يلتقون في آدم! ونهره عن بلبلة الكلام في الأنساب بقصد التقرب من الكبراء، الذين يعرفون مواقفه عند الشدة، حينما دبر مع الشياطين لاغتياله. ولم يكتف الرجل بما حاق به من خزي، بل عاد بعد فترة يدعي أنه من قبيلة الأمير أو أن الأمير من قبيلته، ناسياً "إن المؤمنين أمناء على أنسابهم" مما جعله أضحوكة المجالس، كلما رأوه تغامزوا عليه أنه الباحث عن التعالي بالخسة والدناءة. وأردف آخر مشيراً إلى أن بعض المغرضين يحيكون أمور بليل، قاصدين إثارة الفتن والقلاقل التي توصلهم للرئاسة، لا يتورعون عن سفك دماء الأبرياء لغرض تحقيق أغراضهم الرخيصة، ويدبرون مع الأشرار مكاتبات وأقوال خبيثة للإيقاع بين أهل الديار، وإثارة القلاقل بين العامة وإنفاق المال وإقامة الموائد الكريهة في سبيل نشر الفتن، التي يظنون أنها توصلهم للتطاول والمناصب، غير عابئين بما يجره ذلك عليهم من خزي الدنيا وخسران الآخرة، وحبذا لو يفطن الجميع لمكائدهم مبكراً قبل أن يستفحل شرهم على البلاد والعباد. أما استخفافهم بعقول الحكام فيتجلى في دعاواهم أن سلطتهم على بلدة ما لها جذور تاريخية، ويدعون أسس كاذبة لتلك الدعوى الباطلة، ثم يطلبون تزويدهم بالمال والرجال والسلاح، بغرض استعادة حقوقهم السليبة وحتى يساعدوا الحاكم في توطيد سلطته، والكل يعلم أنهم أهل غدر وخسة، لم يسلم من أذاهم وشرهم حتى قرابتهم وجيرانهم، فمن يثق في أمثالهم الذين لا يراعون إلا مصالحهم الآنية، غير عابئين بمنفعة البلاد وسكانها، مستندين إلى ممارسة الحيل والكذب في كل زمان ومكان.

قاطعه رجل من سدير طالباً منهم إيضاح القصد من الفئة الرابعة "المتدينة" وما وجه الخطر منهم على الإمام؟ بين له أحد الجالسين إن تلك العصبة ذات أثر مقيت وفتاك على الحاكم والمحكومين، فهم يتخذون شريعة الله السمحاء حرفة يمتهنونها لكسب المال، حتى لا يرهقوا أنفسهم بالعمل اليدوي الشاق، وبعض أراذلهم يتقربون من ذوي

السلطة بتكفير من لا يواليهم، ويزينون للحاكم إنزال عقوبات قاسية بمخالفيهم بفتاوى مضللة. ولما أراد البعض بيان تفصيل ذلك، قال إنهم قوم يدرسون الفقه لا ليرشدوا المسلمين بشئون دينهم، لكن ليحصلوا على المال والجاه من الحاكم، فينمقوا له آراء ونظرات تستند على أحاديث نبوية ضعيفة، أو على آيات قرآنية يؤولونها على هواهم، وتختلف أقوالهم باختلاف المكان والزمان والناس. وسرد مثال على ذلك أنهم يحرضون الحاكم للبطش بالبعض، بدعوى أنهم "يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا" لذلك فعملهم السيء يبرر "أن يقتلوا أو يصلبوا أو ينفوا من الأرض" حسب ما يرونه ملائما لهواه، وهذا من أخبث طرق اشعال الفتن بين الناس. وطائفة منهم ممن لا يصلون للحكام يروجون بضاعتهم لغيرهم، فهم يسعون خلف التجار أو العسكر أو الصيارفة، وقد كان في قريتنا متكسب بالدين يلقبونه "جحش المرابي" فهو يجيز له معاملات مالية مشبوهة، فتراه يسمي بيع "العِينة" بأنه "تورق مبارك!" ويحمل معه أختام خضراء وزرقاء وحمراء يصادق بها على فتاواه الباطلة، مما يوقع العامة في حرب من الله ورسوله. إنهم لا يتورعون عن خدمة أي شخص يدفع لهم المرتب، وبلغوا حتى المماليك واستفحل أمرهم لما تولى السلطة بعض وزراء العباسيين في القرن الخامس عندما ساد الضعف فيهم، وأولئك قوم جاءوا من خوارزم والقفقاس (القوقاز) والقزخ وما على ضفاف بحر الخزر (قزوين) وقد استفاد منهم المماليك لاحقاً، حتى يجيزوا لهم ممارسة الفسوق والفواحش والتنكيل بالمسلمين. وإذا نصحهم أحد للكف عن الفساد سبوه، قائلين إنهم أهل الذكر والتوحيد والعلم وأن لحومهم "مسمومة" ويحظر على أحد أن يوجه لهم لوم أو نقد أو حتى نصيحة، فهم الواسطة عند السماء ولا أحد غيرهم يفقه كلام الله وحديث رسوله. تدخل في الحديث رجل بالقول إن الله قد حبانا بجماعة صالحة من ذرية الشيخ محمد بن عبد الوهاب، من العلماء الربانيين الذين يخافون الله ويستحون من الناس، ونأخذ عنهم تفاصيل ديننا الحنيف، ممن قال فيهم الله أنهم طائفة يتفقهوا في الدين وينذروا قومهم، لكن آخر رد عليه عن كيفية معرفة الصالح منهم، وهم ليسوا أفضل من ذرية خليل الله إبراهيم عليه السلام، الذين قال فيهم الله "لا ينال عهدي الظالمين" وقال أيضا "منهم مهتد وكثير منهم فاسقون" وولد نوح عليه السلام ذهب مع الكفار، فلابد من الحذر حيث إن الصلاح لا يورث. أيده آخر بالقول أنه شاهد بعض ذرية الشيخ في الدرعية، زمن حرب الباشا يقومون بأمور غير مستحبة بل ويتعاملون مع العدو، ومنهم من يصدر فتاوى بتكفير أهل القبلة بلا دليل، وآخرون يحرضون على قتل الصالحين وسلب مالهم، والبعض منهم يسبون السلف الصالح مثل الإمام مالك وأبو حنيفة، أو المتأخرين مثل النووي وابن حجر، ويقدسون ما يقوله ابن تيمية وابن القيم في أمور تخالف ما أجمع عليه الصحابة. تدخل الجد وقال أما أنا فأشهد أني حضرت دروس في الدرعية، كان يقدمها الشيخ سليمان بن عبدالله (حفيد الشيخ محمد) وابن عمه الشيخ عبدالرحمن بن حسن، اللذان كانا آية في الوقار والعلم ولم أسمع منهما سوى توقير علماء السلف، وكانوا يستشهدون أحيانا بما ورد في فتح الباري أو رياض الصالحين وغيرها من أمهات كتب المتأخرين، وإن كنت الاحظ كثير من

الإطراء لابن تيمية، لكنه لا يصل حد التقديس الذي يتحدث عنه البعض، وكنت أتمنى لو يكتفى بما ورد عند الإمام أحمد، والتقليل من كثرة تمجيد من جاءوا في قرون الشر المتأخرة، فإن اجتهاداتهم تلائم زمنهم وحالهم، ونحن نستطيع أن نجتهد بما يلائم زمننا. أيده رفيق قائلا إن زمن ابن القيم كان فترة حرجة، سيطر فيها عسكر المماليك الذين سيطروا على مصر والشام، بعد اسقاط دولة الأيوبيين، ثم زادت نشوتهم بعد هزيمة التتار في عين جالوت، وفي القرن الثامن (هـ) استفحلت شهواتهم بعد زوال الخلافة العباسية، وامتدت أطماعهم لمزيد من القوة وأخذوا يجلبون الفقهاء ليساندوا حكمهم المنبوذ من العرب في مصر والشام والحجاز، وهذا ما أدى لإيجاد طائفة من الفقهاء الذين يستغلون الدين للحصول على منافع دنيوية، ثم تزايدت أعدادهم ونفوذهم في القرون الثلاثة التالية. قال أحد المجالسين أنه يجد صعوبة في فهم الفروق بين الصالح والطالح من الفقهاء، فرد عليه آخر بالقول أنهم في الوشم يميزون بسهولة بينهم، فالفئة الصالحة يقال لهم "الربانيون" الذين يقومون بأعمال ترضي رب الناس، ولا يقبلون لقاء ذلك شكوراً أو جزاء دنيوي، سواء كان من النقدين أو طعام وكسوة أو مركب، ولا حتى منصب ورئاسة أو جاه وعلو، كما يخشون كل مظاهر السمعة والشهرة أو الرياء، وهؤلاء العلماء هم من يقصدهم الخاصة والعامة، لمعرفة ما يستشكل عليهم في أمور دينهم مما يستدعي رأي واجتهاد وتمحيص واختيار، و"العلماء الربانيين" ينفقون على أنفسهم وعيالهم من كدهم، ولا يقبلون أي عطاء أو مقابل من الناس أو بيت المال في السر أو العلن. أما "المتدينة" فهم على النقيض من ذلك يقبلون الهبات بدون أن يشرطوا قدر معين وإذا لم يقدم لهم شيء لم يطلبوه، ويرضون بالكفاف لأنهم يمضون جل وقتهم في طلب العلم، وبحث أقوال السلف في أحكام النوازل والمستجدات، التي يلزمها اجتهاد ونظر ورأي واختيار خالص لوجه الله، ومراعاة لحال المسلمين في حاضرهم المعاش وفي قابل زمانهم، كما يؤدون بعض شعائر الدين مثل رفع الأذان وإمامة الصلاة وتعليم الصبيان أو نظافة المساجد، ويقبلون لقاء ذلك ما استيسر من المال. والفئة الثالثة هم "المسترزقة" بالدين الذين يبحثون للتجار والعسكر والسلاطين، عن حلول وفتاوى تعين على تسيير أمورهم، وغطاء يتسترون به عن الوقوع في مخالفة صريحة لشرع الله، ويركنون إلى تأويلات مبتذلة لبعض آيات كتاب الله. ومثل على ذلك ما قاله أحدهم عن أن آية "ليس على الذين آمنوا جناح فيما طعموا" قد نسخت التحريم في الآية التي قبلها، أو أن طلاق الثلاث لا يعتبر إلا واحدة! وهؤلاء هم الشر العظيم على الإسلام، وهم يشترطون الحصول على قدر معين من النقود لقاء اجتهادهم، ويرون أنفسهم مستحقين لما في بيت المال، فهم إما عاملين أو مؤلفة "اذا أعطوا منها رضوا واذا لم يعطوا منها اذا هم يسخطون" وتراهم في المجالس يحرصون على الوجاهة والتميز والأولوية، فلابد أن يقدم لهم أطيب الطعام والشراب، ويجلسون في أحسن مقعد وتقبل رؤوسهم وأيديهم، كما يعتاد زنادقتهم على اتخاذ لباس مميز عن عامة المسلمين، ويمشون وينظرون بطريقة معوجة لأن ذلك ديدن سلفهم، ويتظاهر البعض بخنة في أصواتهم تميزاً عن الغير، ولإخفاء عجزهم عن تجويد النطق بالقرآن،

مبررين ذلك بمرض أو سحر دبره لهم الأشرار. ومن أوضح مخازيهم أن فتواهم تتغير بتغير طالب الفتوى فهذا حلال طيب لمن يدفع الكثير، وحرام خبيث لمن لا يقوم بالواجب حيث لديهم فنون من الخداع. رفع أحدهم عقيرته مؤيداً ذلك، بالقول إنه شاهد اثنان من حاشية الباشا في الدرعية، تنطبق عليهما نفس الصفات، أحدهما يلقبونه الشندويلي والآخر الخليلي، وهم يبررون ممارسة الرذائل والفواحش، وقتل العجزة والنساء بقول "إنهم منهم" وكأنهم لا يميزون بين عبدة الأصنام في الطائف، الذين أمِر ضعفاهم بالخروج قبل دك القرية بالمنجنيق، وبين أهل الطاعة والتوحيد الذين قتلوا في قصف المدافع العثمانية. لما احتدم الجدال بين الحضور لخص أحدهم الكلام، بأن الفتوى لا تقبل إلا من مخلص وجهه وعمله وقوله لله، ولا يقبل أن يدس في جيبه هبة أو عطية لقاء العمل الصالح، ولا يتذرع بأن ذلك مثل العطية على الرقية فذلك علاج يجوز أخذ الأجرة عليه، بل يسوئه أن يطوق به في جهنم. كما أن العمل الخالص يلزمه التقيد بآيات صريحة وأحاديث صحيحة، ولا يتبدل بهوى من يدفع الأجرة، وعليه الالتزام بالوسطية والاعتدال، والتيسير على المسلمين بتجنب العنت والعسر والتعسف ومشادة الدين، فهذا مدعاة للنفور عن شرع الله ويقود للإلحاد والردة عن الملة الحنيفية. اعترض البعض على قوله بأن فيه تشدد على رواد التنوير، ورعاة الهُدى والرشاد بينما أيده آخرون، فختم بسؤالهم إذا كان مالك يقبل عطايا من أبو جعفر، أو أن أحمد يقبل هدايا من المعتصم؟ ولا يجوز لأحد القول أنه يأخذ ذلك المال ليدعم به المجاهدين، أو ليتصدق به فقد رد إمام بني هاشم (الشافعي) على الفاسقة بقوله "لا تزني ولا تتصدقي" فختم الأمر. لذا علينا التمسك بسنن السلف الصالح والبعد عن قبول فتاوى المأجورين، وسأل الله أن يرشد الإمام تركي بن عبدالله للاستغناء عنهم، ويقيض له فقهاء ربانيين من ذوي العلم المستنير، والمبتعدين عن تكسب المال والجاه لقاء ارشاد الناس لتفاصيل الشرع. وقبل أن نختم هذا الفصل أود أن أسرد ما سمعته عن تلك الحقبة، ففي أحد مجالس أبي رحمه الله في خمسينات القرن العشرين، قال رجل مصري وقور إن عام 1240هـ كان فترة مفصلية في تاريخ المنطقة كلها وليس في نجد فقط، حيث في تلك السنة المصادفة لعام 1825م بالتقويم الشمسي، اتجهت قوات الدولة العثمانية الموجودة في مصر نحو أوروبا، مما جعل الباشا محمد علي وولده إبراهيم ينشغلون في حرب ضروس هناك، ويديرون ظهورهم لشبه جزيرة العرب، مكتفين بتحصيل الزكاة من الولاة الثلاثة في غربها (شريف مكة) وشرقها (خوالد) ووسطها. ثم أردف بالقول أنه درس تاريخ مصر في القرن الذي سبقه، ولديه كتب مفصلة عن ذلك طبعت في نهاية القرن التاسع عشر، فرد عليه حاضر بالقول إنهم في غنى عن ملابسات التاريخ، ويكتفون في مجلس "أبو خالد" باستخلاص "العبر من السير" فعارضه مجاور له بأننا نريد معرفة ما كان "بهلول المغربي وكوشك التركي" يتلقونه أثناء حصار الأمير تركي للرياض في تلك الحقبة، لما استعر الجدال قيل دعونا نسمع رأي صاحب المجلس، فقال لهم أبي إنه ليس من دارسي تفاصيل التاريخ، ولكن أنى للسيرة أن تكتمل بدون إلمام بكافة جوانب أسباب الأحداث والمؤثرات الخارجية عليها.

لذا طُلب من المصري أن يوضح ما حدث في قلعة القاهرة وقصر إسطنبول، في تلك السنة المفصلية الحرجة ذات الأثر العميق على نجد، فقال إنه بعد سنتين من قيام السلطان محمود بشنق الإمام عبدالله، استولت الأفكار الشريرة على تدبيره، وأخذ يصيح "إن المشاكل العويصة لا تُحل إلا بالبطش" فكانت هناك قلاقل في جنوب اليونان لم يستطع واليه السيطرة عليها، لذا أرسل له فرقة حربية نكلت بأهل المنطقة، وقبضت على "بطرياركِ" الأرثوذكس وهو مثل الإمام أو المفتى، وقام بشنقه حتى يرتدع السكان ويعودوا للخنوع لجبروت السلطان. لكن ذلك لم يحدث وتفاقمت الاضطرابات، واستمر الحال يسوء لمدة ثلاث سنوات، فقال له بعض وزرائه أن إرسال المزيد من القوات العثمانية المختلطة المشارب لن يجدي، وأوصوه بأن يعهد بذلك لوالي مصر الذي نجح في حملته النجدية، وهو الوحيد الذي يمكنه قهر العصاة المتمردين. ورغم عدم رضى محمود عن تزايد نفوذ باشا مصر الألباني الخبيث، إلا أنه لم يجد بديل عن عودة الاستعانة به ضد الاغريق. لكن محمد علي لم يوافق سريعاً متذرعا بقلة المال والرجال والعتاد، وفهم السلطان مسألة الطمع فوعده بأن يجعل جزيرة كريت الضخمة، ونحو ستين جزيرة صغيرة يونانية بعضها مأهول ضمن سلطته، كما زوده بما تيسر من مستلزمات المعركة. خلال عدة شهور تمكن والي مصر من تجهيز أسطول ضخم، كان فيه قرابة مائتي سفينة ونحو خمسين ألف عسكري، وجعل قيادته في يد ولده إبراهيم باشا (سفاح الدرعية) ووجهه لسرعة القضاء على زعماء الثورة اليونانية. وقد استدعى ذلك أن يسحب قواته من نجد، ويسمح لابن سعود (تركي بن عبدالله بن محمد) بحكمها مؤقتاً بما يضمن سلامة طرق الحج والتجارة، كما فرض عليه تحويل ثلاثة أخماس الإيرادات المالية إليه، والتي بلغت آنذاك ثلاثين ألف ريال فرانسة، لكي يستعين بها في حملته اليونانية. أبدى والدي وبعض رفاقه الشك العميق، في الترابط بين حرب اليونان وتمكن الإمام تركي من استعادة الحكم في وسط جزيرة العرب، وإخراج القوات العثمانية منها.

وبهذا نصل إلى نهاية الفصل التاسع من هذه السيرة الحميدة، وما يمكن استخلاصه من عبر وعظات في أحداثها، وننتقل في الفصل اللاحق لأحداث ولاية الإمام تركي بن عبدالله وولده فيصل ثم حفدته وقرابتهم، التي يسميها الكثير في زمننا الحاضر بداية الدولة السعودية الثانية، أما في ذلك الزمن (عام 1241هـ) فلم توجد مثل تلك المسميات، فعبارة الدولة تعني "العثمانية" في استنبول فقط، وانما كان الناس آنذاك يسمونها حكم آل سعود أو آل مقرن بن مرخان، في الدرعية ثم في الرياض وقد غدتا مدينة واحدة أثناء تحرير هذه المسودة.